


كتاب شهري يصدر عن
رابطة العالم الإسلامي

# الإنسان والبيئة

تأليف
**علي راضي أبو زريق**

ربيع الأول ١٤١٦هـ - العدد **١٥٩** السنة الرابعة عشرة



بسم الله الرحمن الرحيم



# مقدمة

البيئة مصطلح حديث. وهو مشتق في العربية من البؤ وهو المرجع والقرار واللزوم؛ ففي الحديث النبوي عن المدينة عندما هاجر إليها (**ههنا المتبوأ**). وفي الآية القرآنية ﴿**والذين تبوأوا الدار والإيمان**﴾ (الحشر: ٩) والتبؤ هنا المسكن والألف والملتزم.

ومصطلح البيئة الحديث لا يخرج عن هذه الأجواء. فهو يعني المحيط ومافيه. فبيئة الإنسان هي المكان الذي يوجد فيه وما في ذلك المكان من عوامل وعناصر تؤثر في تكوين ذلك الإنسان وفي أسلوب حياته.

من هذا التصور للبيئة انطلق البحث في مساره؛ ولكنه اصطدم بعقبتين شاركتا معاً في تحديد المسار وتضييقه؛ فالعقبة الأولى هي قلة ماكتب عن الموضوع في التراث الإسلامي. والعقبة الثانية كثرة ماورد عنه من تفصيلات وأحكام تناقش الجزئيات اللازمة للحياة اليومية. وكانت هذه التفصيلات والجزئيات ترد منفصلة ومتباعدة وكأنه ليس بينها رابط يربطها؛ فكأن المسلمين القدامى قد اهتموا بالجانب التطبيقي للبيئة ولم ينظروا إليها نظرة شاملة تربط الأمور بعضها ببعض؛ وهذا مما يعقد الأمور ويسبب الاختلاف في الرأي.

ولما كان القرآن الكريم هو الكتاب الذي أوجد المدنية العربية. ووضع للعرب عقيدتهم ومبادئ تقدمهم وعلاقاتهم بالله وبالكون

والحياة وعلاقة بعضهم ببعض، فقد كان المرجع الأول لفهم العلاقة بين الإنسان وبين البيئة ومحاولة وضعها في إطار شامل موح.

لذلك فقد عاد هذا البحث إلى القرآن الكريم في معظم ماجاء فيه. ولما كان ماورد في القرآن الكريم عن موضوع البيئة كثيراً وشاملاً، فقد ضاق الوقت والامكانات عن العودة إلى سواه إلا قليلاً، ففي مرات قليلة وجدت متسعاً وضرورة لاستقصاء ماورد في سنة النبي عن بعض عوامل البيئة، وكانت إشارات إلى انجازات العرب في بعض مجالات البيئة، أو فهمهم لبعض عناصرها.

والمنهج الذي اتبع في اعداد البحث كان جمع الآيات التي لها علاقة بعناصر البيئة. ثم تصنيف تلك الآيات حسب العناصر المقترحة للدراسة، ثم دراسة الآيات الخاصة بكل عنصر على حدة في محاولة لإيجاد تصور شامل لذلك العنصر حسب الرؤية القرآنية له؛ فإن بقي متسع أو ضرورة رُوجعتْ السنة النبوية مراجعة سريعة للتعرف على المعالم الرئيسية لفهم السنة للقرآن الكريم بصفتها الفهم العربي الأول والأفضل للقرآن الكريم. وأحياناً كُنت أبحث عن التطبيق العام للتصور القرآني في بعض العناصر كالنبات والمعادن والطاقة. لكني توقفت عن مراجعة ما سوى القرآن في موضوع كبير وشامل كعلاقة الإنسان بالإنسان لأن الوقت لا يتسع والامكانات لا تسمح؛ فعلاقة الإنسان بالإنسان تشكل معظم أنشطة الحياة، ولا مكان لذلك في مثل هذا الموقف.

وقد حرص البحث في فصله الأخير وهو علاقة الإنسان بالإنسان أن يحصر نفسه في الجانب البيئي للموضوع، بل كان يلتزم

بقلب الموضوع دون اطرافه مخافة الاستطراد والاطالة والتشعب والانصراف عن جوهر الموضوع.

ولا أزعم أن هذا البحث قد غطّى الموضوع كله باحكام، لكني حرصت على أن يكون ماجاء فيه محكماً ما أمكن، بعيداً عن نقاط الخلاف المثيرة للجدل ما استطعت إلى ذلك سبيلا.

ففي موضوع المكان، وهو العنصر الأول من عناصر البيئة حسب هذا البحث، جمعت ماجاء في القرآن فقط حول المكان ضمن فهم عام للمكان والمكان حسب البحث هو الكون كله، الذي يؤثر في الإنسان كونه إنساناً وليس كونه فرداً في أمة ما أو مواطنا في دولة ما. إلا ماذكر عن قدسية المكان فقد كان خاصاً بالمسلمين، ولذلك استثنيت فكرة الوطن من موضوع المكان كي لا يتسع الأمر ويتشعب الموضوع. مع أن للوطن ذكراً في القرآن الكريم، وله في القرآن والسنة وكتب الفقه أحكام ألمحت إليها في فصل علاقة الإنسان.

وبنفس الطريقة عولج موضوع الزمان، فالزمان حركة المكان. والعلاقة بينهما كبيرة.

ثم جمع الماء والهواء في فصل واحد فهما متداخلان في مواطن كثيرة. فالماء يتحول بخاراً ليكون جزءاً من الهواء. والهواء ينضغط فيسيل كالماء.،فلا يخلو ماء من هواء ولا يخلو هواء من ماء، والقرآن الكريم عرض موضوعي الماء والهواء كما هما في الطبيعة، مجتمعين غير منفصلين.

ولكن الماء من ضرورات الحياة؛ لذلك كان لابد من التعرف على التطبيق الإسلامي لتصورات القرآن للماء.. فتعرض البحث إلى بعض

ماجاء في سنة النبي ﷺ عن الماء، ثم عن تعامل الأجيال الإسلامية التالية مع الماء كونه عنصراً لا غنى عنه في بيئة شبه جافة.

وسلكنا نفس المسلك مع المعادن ومصادر الطاقة كونها عنصراً هاماً من عناصر البيئة؛ لأن المعدن كان ومازال فتنة للبشر كما كان عوناً لهم في حياتهم.

وكما في الحياة يأتي النبات بعد المعادن فهو أول درجات الحياة. واحتاج عرض التصور القرآني لعالم النبات معظم ماجاء عنه، ولكن الضرورة ألزمتنا أن نذكر طرفاً مما جاء في السنة عن النبات والمرور على ما أنجزه العرب في هذا الموضوع، ولم يأخذ النبات حقه الكاف من البحث فهو مصدر الرزق الأول للناس، ويستحق أن تفرد له ورقة خاصة به، فلم يتمكن البحث من عرض قضايا النبات المعاصرة بل اقتصر على ذكر طرف منها.

وتلاه موضوع الحيوان رفيق الإنسان على هذه الأرض وهو مصدر عون ورزق ومتعة له؛ وكما هو الحال في النبات فقد حيل دون التوسع في استقصاء أحوال الحيوان كونه عنصراً بيئياً. ولكن الموضوع ختم بذكر العلاقة الجدلية بين الحيوان والنبات. والتي وضعت لصالح الإنسان في النهاية. وقد أحسن العرب استغلالها فأغنوا بها بيئتهم وحياتهم. وكم يتمنى المرء لو سمحت الظروف بذكر العلاقة بين الإنسان والحيوان في البيئة العربية. فهي علاقة طريفة يعرفها دارسو الأدب العربي خصوصاً الشعر الجاهلي منه. ولكن جدية الموقف حالت دون تلك المتعة.

وأخيراً جاء دور الإنسان كونه عنصراً من عناصر بيئة نوعه، وقد

اتخذت كل الاحتياطات كي تنحصر الأفكار والمعلومات التي أوردتها في الاطار البيئي.

ومرة أخرى حال ضيق الوقت دون التوسع في الموضوع، فقد اختصرت الفقرات الأخيرة، وعرضت بإيجاز شديد كي لا يطول الموضوع أكثر مما طال. فتركت تصورات أساسية في علاقة الإ نسان بالإنسان، واختصر سواها، فلم يناقش موضوع القتال ولم يتوسع البحث في فكرة الوطن والعقيدة، والعلاقات الزوجية، ولكنه اضطرَّ إلى موضوعات خلافية كتعدد الزوجات، ولم نتجاوز في هذا الجزء حدود القرآن الكريم كونه مصدراً للمعلومات الأساسية.

**على راضي أبو زريق**

# أولاً– المكان :

الأرض هي منشأ الإنسان ومبتدأه وهي مستقره ومستودعه– من طينها خلق، وعليها يولد ويترعرع، ومن عطائها يعيش، وفي باطنها يدفن عندما تنتهي حياته، لذلك كانت عاملاً أساسياً في تكوينه المادى والروحي.

والأرض جزء من الكون الواسع، لا تنفصل عنه، بل ترتبط معه بقوانين فلكية ثابتة، وعلاقة الأرض بالكون عامل مؤثر في حياة الإنسان، لذلك كان الكون كله بيئة مكانية للإنسان.

وآيات القرآنية الكريم تعرض الكون على أنه:

( أ ) مخلوق من أجل الإنسان ومخطط من أجل راحته وهنائه.

قال تعالى ﴿ **الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم، فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون** ﴾( البقرة: ٢٢ ).

وفي نفس السورة يقول ﴿ **هو الذي خلق لكم مافي الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شيء عليم** ﴾( البقرة : ٢٩ ).

( ب ) بناء قوي آمن متقن الصنعة: جاء في سورة لقمان– ١٠ ﴿ **خلق السموات بغير عمد ترونها، وألقى في الأرض رواسى أن تميد بكم** ﴾ وفي سورة الأنبياء ( ٣١- ٣٢ ): ﴿ **وجعلنا في الأرض**

**رواسي أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجاً سبلاً لعلهم يهتدون. وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون** ﴾.

بل انه مصمم- أي الكون- ليمتع سكانه ويحميهم من عبث الكائنات الأخرى التي قد تهم بإيذاء الإنسان، جاء في سورة الحجر ﴿ **ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للناظرين. وحفظناها من كل شيطان رجيم. إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين. والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شيء موزون** ﴾( ١٦-١٩ الحجر).

( ج ) ويضمن لساكنيه الأمن والرزق الكافي: فالكون بسمواته وأرضه يقع تحت رعاية الله الدائمة، يمسكه باستمرار ليحميه من الزوال. يقول تعالى: ﴿ **إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده** ﴾ (فاطر: ٤١ ).

وبمثل اتقان صنع الكون وديمومة رعايته، قدر الله باحكام مايلزم لسكان الأرض من رزق فخلقه لهم ﴿ **قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين، وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين** ﴾( فصلت: ٩-١٠ ).

( د ) وفيه علامات يهتدي بها الإنسان فكان بعض المعالم على الأرض وبعضها في السماء. أما معالم الأرض فذكرها بقوله: ﴿ **وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون** ﴾ (الأنبياء: ٣١ ).

وأما التي في السماء فهي النجوم ﴿ **وهو الذي جعل لكم**

**النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون** ﴾ (الأنعام: ٩٧).

(هـ) وبعضه أقدس من بعض. فالمقدس ينفع في التقرب من الله والعادي لممارسة الحياة اليومية: ويتحدث القرآن عن واد مقدس اسمه طوى أغلب الظن أنه في سيناء. كما يتحدث عن المسجد الحرام أنه أقدس مكان ويذكر أن له حماية ربانية خارقة للعادة: ﴿ **والمسجد الحرام الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد. ومن يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب أليم** ﴾ (الحج: ٢٥) ويقول في سورة العنكبوت-٦٧- ﴿ **أو لم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم** ﴾.

(و) هذا الكون بكل صفاته وقوانينه وأجزائه مسخر للإنسان بفضل الله: ﴿ **ألم تر أن الله سخر لكم مافي الأرض والفلك تجرى في البحر بأمره، ويمسك السماء ان تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرءوف رحيم** ﴾ (الحج: ٦٥).

وفي مكان آخر من القرآن نقرأ ﴿ **إن في خلق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار، والفلك التي تجرى في البحر بما ينفع الناس، وماأنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون** ﴾ (البقرة: ١٦٤).

ومحصلة هذا التصور للكون علاقة حميمة بين الإنسان ومحيطه؛ فهو مخلوق من أجله، كل مافيه مسخر له، وهو كاف لأبناء الأرض جميعاً ان أحسنوا ادارة أمورهم، وهو بناء قوي محكم آمن.

وبالمقابل فإن هذا التصور للكون يدفع بني آدم في كل جيل إلى ثلاثة أمور:

١ - الخوف من الله وعبادته فهو سبحانه يمسك بزمام الكون بيده وان شاء أفلته فتحطم فوق رؤوس البشر.

٢ - الرضا عن الكون والشعور بالأمن فيه وعدم الشعور بعداوته أو فتح صراع معه كما تفعل فلسفات بشرية أخرى ترى في الكون عدواً شرساً يجب ترويضه والسيطرة عليه أو الخوف منه وعبادته.

فالكون في التصور الإسلامي مخلوق خاضع لأمر الله عز وجل ومسخر للإنسان.

٣ - إدارة أمور الأرض بالعدل والعقل فالرزق الموجود على الأرض مقدر من قبل حكيم، فهو كاف لأبناء الأرض جميعاً وعليهم أن يجمعوه ويقسموه بينهم بالعدل كما أمرهم الله.

# ثانياً: الزمان

الزمان هو العنصر الثاني من عناصر بيئة الإنسان؛ وهو عبارة عن حركة المكان.

وبالنسبة للإنسان الفرد هو عمره ووعاء حياته، يبدأ بمولده وينتهي بوفاته، ولعله أهم قيم الحياة بعد المكان؛ فبقدر مايحسن الإنسان (فرداً أوجماعة) استخدام عنصر الزمن بقدر ماينجح ويتفوق.

وقد أعطى القرآن للزمان من الاهتمام مثلما أعطى للمكان. فدفع المسلم للاهتمام بالزمن واحترامه وعدم العبث بقيمه وعلاماته. والإنسان حسب التصور الإسلامي يملك الزمن الحاضر والآتي، فإذا صار الزمن ماضياً فقد صار ملكا للحق مستقلاً عن صاحبه يشهد له أو عليه حسب استخدامه له.

ومن التصورات التي تتكون لدى قاريء القرآن عن الزمن أنه:

(أ) مضبوط بعلامات ثابتة وواضحة ومتيسرة لجميع الناس أينما كانوا، فالأهلة وهي مراحل القمر تدل ليلاً على موقع اليوم من الشهر، ومكان الهلال من السماء يدل على موقع ساعة الرؤيا من الليلة. ﴿**يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج**﴾ (البقرة:١٨٩)- ﴿**والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم، لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون**﴾(يس: ٣٩-٤٠).

ومنازل القمر تتكرر كل شهر كي يتعلمها الناس ويعتادوها، والشمس تضع الحد بين الليل والنهار، ومن ظلها نعرف كل ساعة من ساعات النهار ﴿**ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكناً، ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً**﴾ (الفرقان: ٤٥).

ومن علاقات الشمس والقمر والأرض وتبادل مواقعها من بعضها البعض كانت وحدات زمانية أكبر من اليوم هي الشهر والفصل والسنة.

﴿**هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب**﴾ (يونس: ٥) وبعلامات ترتبط مواعيد عبادة الله. فالحج أشهر معلومات، والصيام شهر من أشهر العام لا يتغير موعده، والصلاة موقوتة بعلامات الليل والنهار.

(ب) وهو كالمكان مسخر لخدمة الإنسان ومنفعته: ﴿**وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار**﴾ (ابراهيم: ٣٣)

(ج) وتتغير أبعاده ضمن وحدة ثابتة كي يشعر به الإنسان وكي تكون فصولاً وتنوعاً، وكي تحيا الكائنات الأرضية التي يعيش عليها الإنسان، فالنهار يطول ويقصر وكذلك الليل، والفصول تتغير كي يكون صيف وشتاء فتنبت النباتات وتتوالد الحيوانات ولا يمل الإنسان رتابة الأيام. ﴿**تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل، وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى وترزق من تشآء بغير حساب**﴾ (آل عمران: ٢٧).

(د) وأبعاده موضوعة لمصلحة الإنسان ومن وجهة نظر حياته فاليوم مثلاً فترة قصيرة تتشكل بدوران الأرض حول نفسها مرة واحدة، وهذه الدورة القصيرة كافية لتجديد حياة الإنسان، وهذه

الفترة قصيرة جداً مقارنة بأيام كواكب أخرى أو بأيام الله.

فهي كافية لتجديد نشاط الإنسان بتقسيمها إلى ليل ونهار ﴿**وهو الذي جعل لكم الليل لباساً والنوم سباتاً وجعل النهار نشورا**﴾(الفرقان: ٤٧) من جهة أخرى يحدثنا القرآن عن أيام باطوال مختلفة مثل قوله ﴿**وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون**﴾(الحج:٤٧) ومثل قوله تعالى ﴿**تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة**﴾ (المعارج: ٤) واكتشف علم الفلك الحديث أن لكل كوكب يوماً بطول خاص به وقد لا يشاركه فيه كوكب آخر إلا إذا شابهه بالحجم والشكل والسرعة.

(هـ) وحسب التصور الإسلامي فإن لبعض الزمان حرمة وقدسية ليست لبقيته؛ ففي اليوم الواحد أوقات مخصصة للصلاة وأوقات تكون الصلاة فيها مكروهة، وأوقات يستحب فيها الدعاء وتلاوة القرآن، وفي الأسبوع يوم الجمعة وفي العام شهر للصيام وأيام للحج. معروفة كلها بدورة القمر. فعن شهر الصيام يقول القرآن ﴿**شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه**﴾ (البقرة: ١٨٥)- وعن شهر الحج يقول ﴿**يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج**﴾(البقرة: ١٨٩) وفي العام أربعة أشهر حرم لا يجوز فيهن القتال ﴿**لاتحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام**﴾ (المائدة:٢) ويقول: ﴿**لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم**﴾ (المائدة: ٩٥) ﴿**جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام والهدى والقلائد**﴾(المائدة:٩٧).

فالزمن الحرام مقدس بين الأزمنة كالبيت الحرام بين الأمكنة.

(و) ولذا لا يجوز العبث بحدود الزمن تقديماً وتأخيراً. فهو أيام وأشهر تتكرر كل عام لا يجوز اغفال شيء منها أو تسميته بغير اسمه.

﴿ **إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم** ﴾ (التوبة: ٣٦) وفي نفس السورة يقول سبحانه: ﴿ **إنما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ماحرم الله** ﴾ (التوبة: ٣٧).

(ز) وقيمة الزمن في قدرة الإنسان على استغلاله وحسن استعماله. لذلك وجه القرآن اهتمام الناس إلى الحاضر والمستقبل. فهما وعاء العمل الصالح أما الماضي فقد خرج من سلطة الإنسان بل دائرة احساس الإنسان به. ﴿ **قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين. قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين** ﴾ (المؤمنون: ١١٢–١١٣) وإذا كان الإنسان نائماً انعدم احساسه بالزمن مهما كانت مدة نومه، ويروي القرآن قصة أصحاب الكهف الذين ناموا ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعاً. فلما بعثوا من نومهم وتساءلوا بينهم: ﴿ **كم لبثتم، قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم** ﴾ (الكهف: ١٩).

وبهذه التصورات دفع الإسلام أتباعه إلى احترام الزمن واعتباره الثروة الحقيقية وليحرصوا على أن يستغلوه أكفأ استغلال.

# ثالثاً: الماء والهواء

الماء والهواء عنصران من عناصر الكون يتداخلان ويرتبطان بعضهما ببعض، وهما في التصور القرآني كما هما في الحياة فالرياح بشرى بين يدي المطر المحمل سحاباً في الفضاء، أو تكمل وظيفة البحر في تحريك الفلك المسخر لنقل الناس وأشيائهم.

وهما معاً ضرورة من ضرورات الحياة على الأرض لا يستغنى عنها، فالماء أصل الحياة والحياة لا يمكن أن تستمر بدون هواء إلا في مراحل بدائية جداً، لكن التصور الذي يرسخه القرآن الكريم لدى قارئه أشمل من هذه الحقائق وأكثر تفصيلاً:

(أ) فالماء أصل الحياة بكل أنواعها ﴿**وجعلنا من الماء كل شيء حي**﴾ (الأنبياء: ٣٠) هذا اجمالاً. وتفصيلاً يذكر القرآن الكريم أن الماء أصل الإنسان ﴿**وهو الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً وكان ربك قديراً**﴾ (الفرقان: ٥٤) وبه تتحرك الحياة في النبات ﴿**وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى. كلوا وارعوا أنعامكم ان في ذلك لآيات لأولي النُّهى**﴾ (طه: ٥٣-٥٤) ومن الماء خلقت كل الحيوانات ﴿**والله خلق كل دابة من ماء. فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع يخلق الله مايشاء إن الله على كل شيء قدير**﴾ (النور: ٤٥).

( ب ) والماء والهواء معاً مصدر شرب الإنسان ﴿ **وإن من شئ إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين** ﴾( الحجر: ٢١–٢٢ ) .

( ج ) وهما مصدر رزق الإنسان سواء كان ذلك الرزق مما تنبت الأرض أو مما ينشأ في البحر. ﴿ **هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون. ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون** ﴾( النحل: ١٠–١١ ) وقال تعالى ﴿ **وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً** ﴾( النحل: ١٤ ) .

( د ) وهما بالإضافة إلى الرزق مصدر جمال وزينة ووسيلة نقل ﴿ **وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون** ﴾ ( النحل: ١٤ ) ومثل ذلك قوله ﴿ **وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون** ﴾ ( يس: ٤١ ) أو قوله ﴿ **هو الذي يسيركم في البر والبحر، حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين** ﴾ ( يونس: ٢٢ ) وعن البحرين عذبهما وأجاجهما يقول: ﴿ **يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان** ﴾ ( الرحمن: ٢٢ ) .

( هـ ) والهواء موطن رزق وجمال وحكمة من نوع متميز ﴿ **ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء مايمسكهن إلا الله إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون** ﴾ ( النحل: ٧٩ ) .

( و ) والماء للإنسان وسيلة طهر ونظافة لولاها لاستحالت الحياة جحيماً لا يطاق : ﴿ **ياأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين وان كنتم جنباً فاطهروا** ﴾ ( المائدة : ٦ ) ومع الطهر يستفيد الإنسان اطمئناناً وراحة بال ﴿ **وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام** ﴾ ( الأنفال : ١١ ) .

( ز ) وأمر الماء بيد الله بقدر معلوم ونادراً ماينجح الإنسان في خزنه فالله يخزنه ويحفظه نقياً متجدداً لمصلحة الإنسان وبقدر حاجته ﴿ **وان من شيء إلا عندنا خزائنه وماننزله إلا بقدر معلوم. وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين** ﴾ ( الحجر ٢١–٢٢ ) وفي مكان آخر من القرآن تهديد بنزع الماء المخزن في الآبار بوسائل ممكنة ﴿ **قل أرأيتم ان أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين** ﴾ ( الملك : ٣٠ ) .

( ح ) وأخيراً نجد الماء والهواء والظواهر المرتبطة بهما في القرآن مصدر خوف للإنسان وطمع، فهما بشرى بين يدي رحمة الله وانذار يسبق غضبه . فنقرأ في القرآن عن قوم من العرب ﴿ **فاعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل** ﴾( سبأ : ١٦ ) .

ونقرأ في سورة النمل قوله ﴿ **ومن يرسل الرياح بشرى بين يدي رحمته** ﴾–٦٣– وبالمقابل نقرأ في سورة الروم ﴿ **ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعا** ﴾–٢٤– .

بل نراه في العملية الواحدة ينجي بالماء قوماً ويغرق آخرين ﴿**وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون**﴾( البقرة : ٥٠ ) .

هذا التصور القرآني للماء والهواء بنى علاقة حميمة ومثيرة بين الإنسان وبين هذين العنصرين من عناصر الوجود .

أما الماء فقد حرص عليه المسلمون حرصاً شديداً، كما حرصوا على بقائه نقياً طاهراً كي يتمكنوا من شربه نقياً والتطهر به كلما لزم لهم؛ وما أكثر ما يلزم. فالمسلم يتوضأ كل يوم، وقد يتوضأ يومياً خمس مرات: ولذلك حرصوا على تيسيره للجميع فلا يحرم منه أحد، ومن حرصهم عليه أن نبي الإسلام نهى عن الاسراف فيه حتى لو كان للوضوء، يروى أنه مر على أحد أصحابه وهو يتوضأ فقال له لا تسرف في الماء. فقال وهل في الماء من اسراف قال نعم وان كنت على نهر جار. ( زاد المعاد في سيرة خير العباد لابن قيم الجوزية ت ٧٥١ - باب العبادات ص٤٨ ) .

وفي تلك المرحلة المبكرة من الإسلام اعتبر الماء ثروة يمكن التصدق بها كالمال، وشجع نبي الإسلام على ذلك في مناسبات كثيرة منها مثلاً أنه قال: من يشتري بئر رومة فيكون دلوه فيها كدلاء المسلمين. فاشتراها عثمان بن عفان. ( البخاري - الجزء الثالث - باب الشرب ص١٤٤ ) وانسجاماً مع هذه التصورات سمح بملكية الماء على أضيق نطاق ممكن. فقد سمح لصاحب الماء بأن يروي أولاً ثم يكون فضل مائة لبقية الناس، دون أن يكون له في ذلك خيار لقول النبي ﷺ : لا يمنع فضل الماء.. وفي الرواية الأخرى: لا تمنعوا فضل

الماء لتمنعوا به فضل الكلأ. (نفس المرجع السابق) ويرى البخاري رضي الله عنه (أحد جامعي أحاديث النبي ﷺ) أن من حفر بئراً في ملكه لم يضمن لقول النبي ﷺ (المعدن جبار والبئر جبار والعجماء جبار) (المرجع السابق ص١٤٤–١٤٥) وجبار أي هدراً أو ملكاً عاماً.

وتيسير الماء ليس مقصوراً على الإنسان بل للحيوان أيضاً حتى لو كان كلباً ضالاً. يروى أن النبي ﷺ قال: بينا رجل يمشي فاشتد عليه العطش فنزل بئراً فشرب منها، ثم خرج، فإذا هو بكلب يلهث يأكل الثرى من العطش فقال لقد بلغ هذا مثل الذي بلغ بي فملأ خفه ثم أمسكه بفيه ثم رقي فسقى الكلب فشكر الله فغفر له، قالوا: يارسول الله وان لنا في البهائم أجرا قال في كل كبد رطبة أجر. (المرجع السابق ١٤٥–١٤٦).

وفهم المسلمون سنة النبي ﷺ. فعملوا على تيسير الماء لمن هم بحاجة إليه. ففي عهد بني العباس مدت قناة ماء من العراق إلى الحجاز؛ وعلى طول التاريخ الإسلامي كان الأثرياء يتصدقون بمصادر ماء دائمة يسمونها السبل (جمع سبيل). وقد تكون السبيل بئر ماء على طريق منقطع عن العمران، أو حنفية ماء في أحد شوارع المدينة يؤسسها ثري محسن ويدفع نفقتها باستمرار ومازالت ظاهرة السبل موجودة في بعض المدن الإسلامية؛ رغم قيام المؤسسات الرسمية الحديثة بتزويد كل نواحي المدينة بما يلزمها من الماء.

ولم يكن حرص النبي ﷺ على طهارة الماء أقل من حرصه على تيسيره للناس. فمما يروى عنه قوله: غطوا الاناء واوكوا السقاء فإن

في السنة ليلة ينزل فيها وباء لا يمر بإناء ليس عليه غطاء، وسقاء ليس عليه وكاء إلا وقع فيه من ذلك الداء. (المرجع السابق ص١٤٠- الجزء الثالث من زاد المعاد).

وإذا غضضنا الطرف عن تخصيص الوباء بليلة، قد تكون من خلط الرواة، علمنا أن النبي يحرص على عدم تلويث الماء والطعام بالميكروبات الموجودة في الفضاء باستمرار وليس في ليلة بعينها.

بل ان حرص النبي ﷺ على طهارة الماء وسلامته بلغت حداً أكبر من ذلك إذ نهى عن النفخ في الشراب ليحميه من نفس شاربه ورائحة فمه كي لا يتلوث لأن الشارب الأول قد لا يشرب الماء كله وقد يحتاج بقيته شخص آخر؛ وبالمثل نهى عن الشرب من فم السقاء مباشرة؛ ويرى المفسرون أن لهذا سببين عدم تلويث ماء السقاء برائحة فم الشارب. وحماية الشارب مما قد يكون في السقاء من شيء مختلط بالماء. فإذا وضع الماء في كأس علم مابه.

هذا عن طهارة الماء ساعة الشرب، ولكن المحافظة عليه تبدأ قبل ذلك. إذ نهى النبي ﷺ عن تلويث مصادر الماء، فنهى عن تلويث الماء الساكن بفضلات الإنسان، ويقاس على ذلك كل مايلوث الماء. وفي كتب الفقه أحكام دقيقة لطهارة الماء، وللماء الذي يجوز فيه الوضوء والذي يجوز شربه، وفي كيفية تطهير ماء تلوث. ولكن المجال يضيق عن ذكر تلك الأحكام.

ومما توحي به التصورات القرآنية أنه لابد من المحافظة على مياه الأنهار والبحار فهي مصدر طعام وزينة. وأي تلويث فيها يحول دون الانتفاع من طعامها. خصوصاً أنه لا يجوز في الإسلام أكل طعام

حيواني تربى على دنس. لذلك وجب حفظ مصادر المياه من كل مايدنسها، كي لا يعود الدنس إلى الإنسان نفسه. وبهذا نجح القرآن الكريم في اقناع الناس بأن نعمة من الله قابلة للنفاذ والتلوث، وأن عليهم أن لا يسرفوا في استعمالها بل يقصدوا بها لتقوم حياتهم بها سهلة سعيدة، فهي مصدر رزق في البحر والبر، وعليهم أن يحافظوا عليها نقية كي يحفظوا بذلك صحتهم سليمة.

وأما الهواء فلم تكن المشكلة في كميته، فهو متيسر يتخلل كل فراغ في الأرض وحولها، ولكن مشكلته قد تكون في تلوثه، فهو مادة تنفس الإنسان، فإن كان نقياً تجددت به نقاوة دم الإنسان، وتجددت معه طاقة الإنسان وقوته واعتدل مزاجه، وان تلوث تعوقت عملية التنفس، وصار ساما للإنسان وحاملاً للأمراض؛ وقد أشار الحديث النبوي عن تغطية الاناء وايكاء السقاء إلى أن الهواء قد يحمل من الداء مالا يعلم إلا الله؛ وهذا صحيح علمياً؛ وفي أحد أدعية النبي ﷺ نرى فهماً واضحاً لتلوث الهواء إذ يقول (**اللهم حبب إلينا المدينة كما حببت إلينا مكة أو أشد وانقل حماها إلى الجحفة**) (صحيح البخاري- الجزء الثامن ص٩٩) فالحمى تتسبب عن جراثيم في الجو يحملها الهواء، والنبي يدعو ربه أن يصرفها إلى مكان آخر.

وانسجاماً مع هذا الفهم نهى النبي ﷺ عن نقل جراثيم المرض إلى بلد لم يظهر بها المرض بعد، ولو كان ذلك فراراً من المرض أو الموت. قال (**إذا سمعتم به «الوباء» بأرض فلا تقدموا عليه وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منه**) (رياض الصالحين ص١٢٦)

والتفسير هنا واضح هو عدم نشر جراثيم الوباء في هواء نقي منه.

وكما أن البحر موطن لأمم من المخلوقات النافعة للإنسان كذلك الجو موطن لأمم من الطير والمخلوقات النافعة والمتوازنة؛ لذلك يحرم تلويثه بالمواد السامة كي لا تموت أمم الطير والمخلوقات الصغيرة الأخرى؛ لأن في موتها خسارة محققة للإنسان مباشرة بموت الطير التي يتغذى عليها الإنسان أو بطريقة غير مباشرة عندما تفنى كائنات تلزم لتلقيح النباتات أو لحمايتها من آفات ضارة. فيقل المحصول.

وإذ كنا الآن نتحدث عن تحريم تلويث الجو بالمواد الكيماوية السامة وبالاشعاعات النووية الضارة بالإنسان وأجياله، فإن نبي الإسلام نهى عن تلويثه بما هو أدنى من ذلك بكثير كنشر الرائحة الكريهة في الجو لذلك نراه ينهى عن جمع فضلات الطعام في البيت كي لا تنتشر الرائحة الكريهة فيه مع مايرافقها من جراثيم المرض، كما نهى عن أكل البصل والثوم عند دخول المسجد كي لا يؤذي المصلين برائحته.

## رابعاً: المعادن ومصادر الطاقة

ورد في القرآن ذكر لعدد من المعادن كالذهب والفضة والنحاس والحديد كما ذكرت بعض الجواهر الزينة كاللؤلؤ والمرجان والياقوت. كما ورد ذكر مركبات تشبه المعادن في خصائصها كالملح والحجارة. وكذلك ذكرت بعض مصادر الطاقة كالنار وقوة الريح والماء وحرارة الشمس، وفي مجال النقل أشار القرآن إلى قوى لم يكشف النقاب عنها بل وعد بها بني آدم.

وقد ذكرت هذه العناصر في القرآن الكريم على ثلاثة أوجه:

**الأول**: نعمة من الله للناس لتقوم بها حياتهم وتتيسر عندما يستعملونها لما خلقت له؛ ويلاحظ أن منافعها تغطي مجالاً كبيراً في حياة الإنسان ابتداء من الدفء مروراً بالطعام والزينة وانتهاء بالدفاع عن النفس ورد عدوان المعتدين، ومن أمثلة ذلك في القرآن الكريم: ﴿**أفرأيتم النار التي تورون أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشؤون. نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين**﴾(الواقعة: ٧١-٧٣) ﴿**يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان. فبأي آلاء ربكما تكذبان**﴾ (٢٢-٢٣) الرحمن. ﴿**ولقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز**﴾(الحديد: ٢٥).

**الثاني**: فتنة وامتحان لقوة خلق الإنسان؛ فالذهب والفضة مال وزينة يمكن استعمالهما في مايلزم وينفع ويمكن استعمالهما للتباهي والتفاخر وجمع السلطة للتحكم بالآخرين، مثلهما في ذلك مثل الحديد الذي يصنع منه السلاح فيستعمل للعدوان أو الجهاد، من ذلك قوله تعالى: ﴿ **زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب** ﴾ (آل عمران: ١٤) أو كالذي جاء في قصة قارون النابضة بالحياة ﴿ **ان قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إنّ مفاتحه لتنوأُ بالعصبة أولى القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين** ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ **فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ما أوتى قارون انه لذو حظ عظيم** ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ **فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وماكان من المنتصرين** ﴾ (القصص: ٧٦,٧٩,٨١).

**الثالث**: يد الله الطولى كبقية القوى الموجعة في الكون. فلطالما سلط الله سبحانه عناصر الكون على عباده الظالمين ليجعلهم عبرة لسواهم فيتوقف بذلك انتشار الفتنة. ومن أمثلة ذلك في القرآن:

- ﴿ **ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل. ألم يجعل كيدهم في تضليل. وأرسل عليهم طيراً أبابيل. ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول** ﴾ (سورة الفيل).

- ومن قوم لوط ﴿ **فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وماهي من الظالمين ببعيد** ﴾ (هود: ٨٢-٨٣).

- وعن عاد وهي إحدى الأمم البائدة يقول:

﴿ **وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية. سخرها عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم اعجاز نخلٍ خاوية. فهل ترى لهم من باقية** ﴾ (الحاقة: ٦-٨). والنار هي مستقر كل من أغضب ربه غضباً لا رضى بعده:

﴿ **كلا إنها لظى. نزاعة للشوى. تدعو من أدبر وتولى** ﴾ (المعارج: ١٥-١٧).

هذه هي التصورات التي رسمها القرآن للمعادن ومصادر الطاقة. وهيٍ في مجملها تمهد لاستعمال الطاقة والمعادن استعمالاً عاقلاً واعياً. فإن لم يستطع الإنسان أن يصل إلى هذه الحال بنفسه جاء القرآن وتلته السنة في وضع أسس استعمال الطاقة والمعادن ومن هذه الأسس:

١- استعمالها لما جعلت لها وفق ارادة الله بعيداً عن البغي والعدوان والتباهي وإثارة حسد الآخرين. فبينما يأمرنا سبحانه بأخذ كامل زينتنا عند كل مسجد نراه يخسف بقارون الأرض لأنه استعمل زينته للبغي على قومه تكبراً واثارة لمكامن حسدهم وحقدهم. وكذلك نقرأ عن الحديد وتحويله إلى دروع على يد نبي الله داود ﴿ **وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم، فهل أنتم شاكرون** ﴾ (الأنبياء: ٨٠).

٢- الاعتدال في الانفاق منها وعدم الاسراف فيها فهي قابلة للنفاذ: ﴿ **والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما** ﴾ (الفرقان: ٦٧).

﴿ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا﴾.. ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسورا﴾ (الاسراء: ٢٧- ٢٩).

٣- التّسامح في بعض الأمور الضرورية لأن الناس شركاء فيها كلها؛ كالنار ومصادرها يقول النبي ﷺ : (المسلمون شركاء في ثلاث- الماء والكلأ والنار)[*] وفي حديث أن (المعدن جبار والبئر جبار والعجماء جبار وفي الركاز الخمس) . والمعدن هو المنجم بلغة هذه الأيام، وهي المصدر الطبيعي للعناصر الكيماوية أو الطبيعية ومصادر الطاقة كالنفط والفحم ومايخلق الله- من هذا القبيل. والركاز هي مادفن بيد الأجيال السابقة من ذهب وفضة وجواهر أخرى. والمعدن جبار أي ملك عام لا يجوز أن يخصص لأحد أو لمجموعة دون الأمة. وفي الركاز الخمس يكون للأمة والباقي لمن يعثر عليه أو يكون في ملكه. حسب ما تسمح به الأحكام الإسلامية.

٤- الحرص على العدالة الاجتماعية بين أفراد المجتمع ومنع الايثار بفئة دون أخرى من أنواع المال والمعادن. والآية القرآنية تقول محذرة ﴿كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم﴾ (الحشر:٧). وزكاة الذهب والفضة والمجوهرات مبدأ ثابت من مبادئ المجتمع الإسلامي.

٥- دفع المجتمع إلى تطوير استعمال الثروات كلما أمكن وبكل السبل. وقد أشار القرآن اشارات كثيرة إلى أنه سيفتح على بني آدم باختراعات واستعمالات للطاقة لم يكونوا يعرفونها أثناء نزول القرآن. كقوله عند ذكر وسائل النقل ﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾(النحل: ٨)

---

(*) أحمد ٥ / ٣٦٤ جامع الأصول.

. وكذكره قصة ذي القرنين إذ ابتدع لقوم من أهل الأرض جسراً من نحاس وحديد وتعليمه الله عز وجل نبيه داود صنع الدروع واعتبار ذلك نعمة من الله على الناس عليهم شكرها... إلى آخر التلميحات القرآنية في هذا المجال.

وقد فهم المسلمون هذا فطوروا ما استطاعوا في صناعة المعادن. حتى صار لهم نتاج معروف في علمي الكيمياء والفيزياء. واستفادوا من كل طاقة وجدوها في بلادهم. فاستخرجوا الماء بالريح واستعملوا قوانين الطبيعة بكفاءة عالية حتى اخترعوا الروبوط الذي نسميه الإنسان الآلي. وأجدني في غنى عن ذكر الساعة والاصطرلاب والصناعات البحرية.

ولا بد أن نذكر أنهم اكتشفوا النفط وطرفا من استعمالاته. حتى ذكره القزويني في كتابه عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات. وقد ألف الكتاب المذكور سنة ٦٧٨هـ الموافق لسنة ١٢٨٠م أي منذ أكثر من سبعة قرون من الزمان.

# خامساً : النبات :

النبات في التصور القرآني دلالة حياة ومصدر بهجة وجمال، ونعمة من الله لا تقوم حياة الإنسان إلا بها. وهو تحد واستجابة ووسيلة للتطور البشري وأداة للتمدن. وهو في الجنة جائزة المتقين.

والقرآن الكريم لا يمل ذكر النبات. فيكاد يذكره في معظم سوره. بل يرد ذكره في السورة الواحدة عدة مرات خصوصاً إن كانت السورة طويلة. ومن وجوه ذكره في القرآن الكريم:

(أ) حياة الأرض، وقبلها تعتبر الأرض ميتة أو كذلك تبدو ﴿ **وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون. وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون** ﴾ (يس: ٣٣-٣٤). وفي مكان آخر من القرآن الكريم ﴿ **وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج** ﴾ (الحج: ٥).

(ب) وحياتها دليل على حركة الكون، وحياتها العضوية تذكر الإنسان بحياته فيستمد منها عظة وهداية كما يستمد منها روحاً ونشاطاً: ﴿ **إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات**

**لقوم يتفكرون** ﴾( يونس: ٢٤ )

( ج ) والنباتات كالناس وكبقية المخلوقات الحية أزواج كريمة: ﴿ **والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج. تبصرة وذكرى لكل عبد منيب** ﴾ ( ق: ٧-٨ ). وفي مكان آخر يقول: ﴿ **سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون** ﴾( يس: ٣٦ ).

( د ) وهو عالم متوازن ومخلوق بحساب إلهي دقيق: ﴿ **والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شئ موزون** ﴾( الحجر: ١٩ ).

( هـ ) وأنواع النبات مخلوقة بعناية وارادة إلهية وليست عملاً عفوياً من نتاج البيئة كما ظن يوما فريق من الدارسين. يقول الله تعالى ﴿ **وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون** ﴾( الرعد: ٤ ).

وهذه الآية تستحق الوقوف عندها لأنها تثير قضايا حية، لا أظنها كانت مطروقة أيام نزول القرآن، فالآية تؤكد أن الله سبحانه هو الذي يخلق الأنواع ابتداء، والنوع هو مجموعة أصناف تلتقي في كل الصفات الأساسية كتركيب الزهرة وشكل الورقة وتشريح الثمرة، هذا ظاهرياً، فإن تعمقنا أكثر وجدنا لنباتات النوع الواحد نفس العدد من العوامل الوراثية ( الكروموسومات ). وهذا هو الفيصل في قضية النوع نباتياً أو حيوانياً، وتحت النوع تكون أصناف، فالعنب نوع وله أصناف كثيرة بعضها ذو ثمار خضراء اللون وبعضها ذو ثمار سوداء.

وهناك مئات الأصناف التي تندرج تحت نوع العنب، تختلف في شكل الثمرة ولونها وعدد بذورها وشكل الورقة ولون الساق، لكنها جميعاً تحتوي على نفس العدد من العوامل الوراثية.

والإنسان والبيئة غير قادرين على خلق نوع أو تطويره إلى نوع آخر، لكنهما مجتمعين أو منفصلين يستطيعان إيجاد أصناف جديدة، فهناك أصناف كثيرة من العنب، طورت في السنوات الأخيرة من أصناف قديمة.

الأمر الثاني الذي لفت النظر في هذه الآية هو تقديمها لفكرتها بطريقة علمية تتفق مع أحدث أساليب الكتابة العلمية، فقد ثبتت الآية عوامل البيئة المشتركة وهي الأرض فجعلتها قطعاً متجاورات فثبت معها عناصر الجو جميعاً، وكذلك ثبتت عنصر الماء فهي تسقى بماء واحد، ومع هذا اختلفت ثمارها مذاقاً، لتدفعنا إلى الاستنتاج المنطقي والعلمي وهو أن اختلافها عائد لأمر ذاتي خلقه الله فيها، ويأتي العلم التجريبي الحديث ليحدثنا عن العوامل الوراثية التي تحمل صفات الأصناف بما تحمله من جينات وتحدد النوع بعددها الذي يشكل اطاراً ثابتاً للنوع، وبذا يتخلى الإنسان عن المحاولات المستحيلة، ليستثمر طاقته فيما يقدر عليه ويستفيد منه وهو يعمل في رعاية نباتاته وتطويرها.

(و) وهو في ذاته بيئة لسواه من المخلوقات تسكنه بوحي الله وقدره: فمثلاً يقول القرآن الكريم ﴿**وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون ثم كلى من كل الثمرات، فاسلكى سبل ربك ذللاً يخرج من بطونها شراب**

**مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ان في ذلك لآية لقوم يتفكرون** ﴾( النحل :٦٨-٦٩ ) .

والإنسان لا يعترض على النحل، لكن أنواعاً أخرى من الحشرات قد تعيش على أشجاره وثماره فتفسدها، فيهب للقضاء على تلك الحشرات، ولكنه لعجز أساليبه المتاحة قد يقتل مع الحشرات الضارة نحلاً نافعاً وحشرات أخرى لا تقل عن النحل نفعاً، وهو لا يعلم، بالإضافة إلى ذلك فإن الشجرة نفسها تتأذى من الرش بالمبيدات الكيماويات، وسنجد بعد قليل أن عملية رش الأشجار بالمبيدات تتعارض مع تصور آخر من التصورات القرآنية للنبات ووظيفته .

( ز ) والنبات رمز حماية ونجاة للإنسان، كما كانت شجرة اليقطين التي أنبتها سبحانه حماية لنبيه يونس ﴿ **فنبذناه بالعراء وهو سقيم . وأنبتنا عليه شجرة من يقطين** ﴾( الصافات : ١٤٥-١٤٦ ) .

( ح ) وهو رزق للإنسان يعيش عليه : ﴿ **ونزلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد . والنخل باسقات لها طلع نضيد . رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج** ﴾( ق ٩-١١ ) .

وفي مكان آخر يقول تعالى ﴿ **لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور** ﴾ ( سبأ : ١٥ ) .

( ط ) وهو رزق كاف كما نفهم من آية سورة فصلت ( ١٠ ) ﴿ **وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين** ﴾ ولهذه الآية دلالتها في تطمين الإنسانية

على مستقبلها. وعدم خوفها من الجوع، ولكن عليها حسن توزيع تلك الأقوات كي تنال كل أمة في الأرض نصيبها من رزق الله. ولهذا التصور أهمية أخرى في توحيد الإنسانية ونشر السلام والتفاهم بين البشر. فطعام أمة أو بعضه قد ينشأ على أرض أمة أخرى، فإما حياة تقوم على التفاهم والسلام واما موت بالجوع أو بدمار الحروب.

(ي) وهذا الرزق طيب ﴿**قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا، خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون**﴾ (الأعراف: ٣٢) والطيب هو المستلذ للحواس الخالي من العيوب. فهل يبقى طيباً عندما نلوثه بالمواد السامة بحجة تحريره من الآفات؟ وسؤال آخر: هل تعطي الزراعات المبالغة في استعمال التكنولوجيا كالزراعة المائية والزراعة الضبابية ثماراً طيبة كالتي تنبتها الأرض؟ نتوقف عن الإجابة على هذين السؤالين لنفرد لكل منهما فقرة في نهاية هذا الفصل.

(ك) وهو للإنسان ولحيواناته؛ والمردود في المرتين للإنسان مرة ثماراً طيبة وأخرى لحماً شهياً. ﴿**الذي جعل لكم الأرض مهداً وسلك لكم فيها سبلاً وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى. كلوا وارعوا أنعامكم إن في ذلك لآيات لأولي النهى**﴾(طه:٥٣,٥٤) والنبات كله في الظاهر نبات الأثمار، فالله سبحانه خلق نبات الأثمار لكائن عاقل يقطف الثمر بيديه، ويتناوله من أي مكان في الشجرة، أما نبات المرعى فخلق لكائن مختلف غير طليق اليدين يأكل بفمه مباشرة ويأتي النبات من أعلاه، فجعل الله سبحانه نقطة نمو نبات المرعى في أسفل الفرع لتبقى مصدراً مجدداً

للأوراق عندما يأكل الحيوان الأوراق النامية، وجعل نقطة نمو الأشجار والنباتات المثمرة في أعلاها كي تنمو عالياً في الهواء ولأنه لا خطر عليها من التلف. فالمعنى بها واع بما يفعل.

لذلك لا عجب أن نقرأ آيات تمن على الناس خلق المرعى وعدم جمعه مع بقية أشجار الجنان، ليلفت نظر الإنسان إلى حكمته سبحانه وتعالى فهو ﴿**الذي أخرج المرعى. فجعله غثاء أحوى**﴾ (الأعلى: ٤-٥).

(ل) وهو مرتبط بإرادة الله المتجددة مباشرة وليس أمره أمر صدفة واتفاقات جوية، يقول تعالى: ﴿**ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض، ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون**﴾ (الأعراف: ٩٦) ويروى قصة قوم من العرب كانوا يسكنون سبأ ﴿**لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور. فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشئ من سدر قليل. ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلاّ الكفور**﴾ (سبأ: ١٥-١٧).

(م) وقد تكون قلته تحد فتكون الاستجابة الصحيحة تقدماً علمياً وتمدنا، فالإنسان يكافح من أجل لقمة عيشه، وخلال رحلة الكفاح هذه يتطور ويخترع الوسائل المادية ويتمدن خلقاً. وفي سورة يوسف نموذج لهذه الظاهرة، فالملك المصري يرى في منامه أنه ستمر على بلاده سبع سنوات خصيبة تتلوها سبع سنوات ممحلة، ويكون مفسر الرؤيا نبي الله يوسف، فيدبر لهم يوسف أمر عيشهم في

السنوات العجاف من فائض السنوات السمان، وبذا يتعلمون عدم الاسراف والاحتفاظ بفائض طعامهم كما يتعلمون لأول مرة الطريقة المثلى لتخزين الغلال. ﴿ **قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلاً مما تأكلون. ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلاً مما تحصنون. ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون** ﴾( يوسف: ٤٧-٤٩ ).

وقد وعد القرآن المسلمين بهذا النوع من البلاء ليدفعهم إلى التطور والتقدم المستمر، فالاسترخاء الناتج عن الرزق السهل ليس دائماً في مصلحة المجتمع الإنساني، يقول تعالى: ﴿ **ولنبلونكم بشئ من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين** ﴾( البقرة: ١٥٥ ).

( ن ) وآخر تصورات القرآن لوظائف النبات في الدنيا أنه مصدر بهجة وجمال فليستمتع به الإنسان ولترق نفسه في مدارج الجمال والاتقان وليتعلم منه الاحسان، في سورة النمل يقول سبحانه ﴿ **أمّن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ماكان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون** ﴾( النمل: ٦٠ ) وفي سورة النحل يتحدث عن اختلاف ألوان النبات والحيوان. ﴿ **وما ذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه إن في ذلك لآية لقوم يذكرون** ﴾( النحل: ١٣ ).

من هذه التصورات القرآنية الأربعة عشر استمد المسلمون وأولهم نبيهم ﷺ حبهم لعالم النبات واهتمامهم به وحرصهم عليه.

وقد تطورت علاقتهم بالنبات من مستوى الضرورة المبدئية التي

تدفع الإنسان للبحث عن طعام إلى أرقى مستويات الجمال المتمثلة معنوياً بحرص أبي بكر ( خليفة النبي ) على المحافظة على زروع أعدائهم الذين يحاربهم وكأن تلك النباتات والأشجار ابناؤه أو بعض أهله. والمتمثلة مادياً بجنة العريف التي أسسها العرب إلى جوار قصر الحمراء لتبقى شاهداً إلى اليوم على فهم العرب لقوله تعالى ﴿ **حدائق ذات بهجة** ﴾( النمل : ٦٠ ).

فمما يروى عن النبي ﷺ أنه قال: **( من أعمر أرضاً ليست لأحد فهو أحق )** ( صحيح البخاري ج٦ باب فضل الزرع والغرس ) وله حديث آخر قريب من هذا **( من أحيا أرضاً ميتة فهي له )** ( نفس المرجع السابق ) وشجع الناس على غرس أرضهم في كل الظروف قال **( ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة )**( نفس المرجع ).

وللنبي ﷺ أحاديث كثيرة أمر بها المسلمين باعمار أرضهم وزراعتها ومشاركة بعضهم البعض في الزراعة؛ بل أشرك اليهود في أمر الزراعة إذ عاقدهم على أن يقوموا بفلاحة أرض على نصف ثمرها ( المرجع السابق ).

وإذا كان اشراك أعداء الأمة بالعملية الزراعية جائزاً، في سنة النبي ﷺ ، إذا التزموا بشروط المشاركة؛ فإن أبا بكر الصديق صنع أكثر من هذا عندما أوصى ألاّ يقطع شجر الأعداء المحاربين أو يحرق. ففي الخطبة التي ودع بها جيش أسامة المتجه إلى بلاد الشام قال خليفة النبي ( قفوا أوصكم بعشر فاحفظوها عني : لا تخونوا ولا تغلّوا، ولا تغدروا ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة،

ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعير إلا لمأكله) (الطبري مج٣-ص٢٢٦).

واستوحى المسلمون تصورات القرآن بشأن النبات وزراعته وعلموا أنه نعمة الله. كما فهموا سنة نبيهم وخلفائه من بعده. فأعطوا للزراعة ماتستحق من الاهتمام. ومن يطالع كتب الفقه يلاحظ كثرة الأحكام التفصيلية الموضوعة لضبط العملية الزراعية وتداول الناس لها.

أما عن التقدم الذي أنجزه المسلمون في الزراعة فيكفي لمعرفته مطالعة أيّ كتاب من كتب الفلاحة أو علم النبات التي ألفها العرب في المشرق والمغرب.

ففي المشرق لم يكن عجائب المخلوقات للقزويني أفضل الكتب في هذا المجال؛ لكنني أذكره لشهرته ولأنه مازال متداولاً كالكتب الحية الحديثة الصدور، وفي هذا الكتاب نجد أن القزويني قد ذكر مائة وستة وثمانين نوعاً من النبات في كتابه، كان يفرد فقرة أو أكثر لكل نوع من النبات، يتحدث فيها عن شكل النبات وصفاته وبيئته وموعد زراعته وخصوصياته.

وتراوحت نباتات القزويني بين الأعشاب البرية ذات القيمة الطبية أو الرعوية ومن الأشجار المثمرة الكبيرة ولم ينس الأشجار الحرجية ولا نباتات الزينة التي كانت مشهورة في زمنه.

وفي المغرب بلغت الزراعة شأواً عظيماً، وظهر عدد من الباحثين الزراعيين الممتازين خصوصاً في مجال العناية بالأشجار المثمرة

وتكثيرها وكذلك في مجال الزراعة في المناطق الجافة.

ففي مجال الأشجار المثمرة تفننوا في تطعيمها ووصلوا حداً لم نتقنه بعدهم، فقد ذكروا في مراجعهم أنهم نجحوا في تطعيم الأنواع المختلفة على بعضها البعض، وهو نوع من التركيب لا نتقنه هذه الأيام. فالتطعيم اليوم ينحصر بين نباتات النوع الواحد أو أنواع الجنس الواحد.

كما استعملوا التكاثر الخضرى أي تكثير بواسطة استنبات جزء منه؛ كأخذ فرع أو جزء من الجذور وتحويله إلى كامل، وقد استعملوا التكاثر الخضري هذا في أنواع مازال تكثيرها خضرياً صعباً علينا لولا الهرمونات مثل التفاح والكمثرى.

وفي مجال التغلب على جفاف التربة، لهم حيل طريفة وذكية. فقد كانوا يزرعون النباتات الصحراوية من فصيلة الصباريات ثم يزرعون بجوارها أو في أنسجتها الحية النباتات التي لا تقدر على الجفاف فتستمد هذه الرطوبة اللازمة لها من تلك فتعيش وتعطي ثماراً طيبة.

ومن يطلع على كتاب الفلاحة لابن البصال (وهو واحد من بضعة كتب ألفها العلماء العرب في الأندلس). يجد أنهم قد وصلوا في مجال وصف أمراض النبات وآفاته حداً لا يقل كثيراً عما وصلت إليه الحضارة الغربية اليوم.

وقد حدثني أستاذ في إحدى كليات الزراعة أنه يقرأ وصف المرض النباتي في كتاب ابن البصال ثم يقرأه في أحد المراجع

الأمريكية فلا يجد بينهما أى فرق سوى أن الكتاب الحديث ذكر مسبب المرض ان كان فطراً أو فيروساً مثلاً.

## * الرش بالمبيدات الكيماوية لوقاية النبات:

منذ بضعة عشر عاماً كنت أعمل مرشداً زراعياً في منطقة وادي الأردن، فزرت مزرعة حمضيات، كانت أشجارها بحالة سيئة جداً، غزاها واكتست سيقانها بالصمغ وبالحشرات العنيدة، وظننت يومها أن جذورها وكر للديدان الاسطوانية المسماة بالنيماتود، شعرت بالحزن الشديد على تلك المزرعة وبحثت عن مالكها، فوجدته رجلاً عجوزاً تجاوز السبعين من عمرة، سألته: لماذا لا تعالج أشجار وترشها بالمبيدات الكيماوية؟ ألا ترى أنها تموت؟ فغضب وقال: هذه الأمور بيد الله، ولا يقدر على تغييرها أحد، فلا تحدثني عن الرش بهذه السموم.

غادرت المزرعة وأنا حزين جداً بل غاضب من تلك الطريقة في التفكير، ولكنني لا أنكر عليكم لو أن هذه الحادثة تحدث الآن لما حزنت كثيراً ولرأيت أن الرجل على شئ من الصواب.

وقد يقول الآن قائل، أن عمر بن الخطاب عندما رفض دخول مدينة فيها طاعون قال نفر من قدر الله إلى قدر الله. وقد يضيف هذا القائل إن كانت الحشرات والأمراض التي تصيب النبات قدراً فلماذا لا نفر منه إلى قدر آخر هو معالجة المرض وقتل الحشرات بالمواد

الكيمياوية، وقد يتلوا آخر حديث النبي المشهور: (**تداووا عباد الله فإن الله تعالى لم يضع داء إلا وضع له دواء**)[*].

والجواب هنا أن قضية رش الأشجار والنباتات أكثر عمقاً وتعقيداً من تداوي الإنسان أو تجنبه للعدوى، أنها قضية ذات أبعاد خلقية وبيئية ولها علاقة بصحة الإنسان وأجياله، وذات ارتباطات معقدة بين عدة مجموعات رئيسية من مخلوقات الله تعالى.

وقبل الحديث عن أبعاد قضية الرش بالكيماويات لابد أن نذكر أننا وصلنا حالة لا يمكن معها الاستغناء عن معاملة الأشجار بالمبيدات والمواد الكيماوية، فقد أوصلنا البيئة الطبيعية إلى حالة من عدم التوازن لا تستقيم معها حياة النباتات إلا برشها بالمبيدات الكيماوية.

والنباتات ترش بنوعين من المبيدات الكيماوية. الأول لمقاومة الأمراض والحشرات التي تصيب النباتات أو تتطفل عليها، والثاني لمقاومة نباتات أخرى تنافس النبات المرغوب به عند الإنسان وكلا النوعين من الرش مرفوض حسب التصور القرآني للنبات وطفيلياته. فالرش لمقاومة الأمراض والحشرات يسبب ثلاثة أخطار: فبقايا المواد المرشوشة التي تنتشر رذاذاً في الهواء لابد أن تلوث البيئة ويتنفسها الإنسان. فإن لم تقتله لا تتركه دون ضرر بصحته. ولطالما مات عمال زراعيون بسبب رذاذ المبيدات الكيماوية المنتشر في هواء المناطق الزراعية. والخطر الثاني يكون بقتل كائنات نافعة موجودة في بيئة النبات، فمعروف أن لكل حشرة طفيلاً حشرياً آخر يعيش عليها وهذا

(*) صحيح الجامع ٣ / ٣٧.

بعض جوانب التوازن في الكون، وغالباً مايكون الطفيل أضعف تكويناً من فريسته الحشرة الضارة بالنبات والمقصودة بعملية الرش فيموت الطفيل قبل الحشرة، ومهما بقي من اعداد الحشرة فإنها ستقدر على التكاثر مرة أخرى، ولن تجد هذه المرة الطفيل الذي يفترسها وقد تكتسب مناعة ضد بعض المبيدات الكيماوية فيستفحل أمرها.

وقد يموت مع الطفيليات النافعة للإنسان حشرات أخرى ذات قيمة عالية في غذاء الإنسان واقتصاده كالنحل الذي يعيش دائماً قريباً من أزهار النباتات بل، ستموت جميع الطيور الموجودة في جو المزرعة أثناء عملية الرش، وفوق ذلك فإن النبات المرشوش بالمبيدات الكيماوية يتأذى ويضعف ويعطي ثمارا رديئة.

والخطر الثالث والأهم، أن جميع الثمار الموجودة على النبات أثناء عملية الرش تتلوث بالمادة المرشوشة، وبعض المواد المرشوشة تبقى على الثمار مدة طويلة حتى أن بعض الكيماويات التي نأكلها مع الثمار تتخزن في جسد الإنسان.

ونستخلص من هذه الأخطار أن الرش بالمبيدات الكيماوية من أجل الحصول على كمية ثمار أكبر، يخالف التصور القرآني لوظيفة النبات في أكثر من نقطة، فهو يحول دون الحصول على ثمار طيبة. والثمار المرشوشة بالمبيدات الكيماوية الملغمة بالمواد السامة والمحتوية عليها داخل أنسجتها هي ثمار رديئة بل ضارة، وليست طيبة على الاطلاق ولو كان لها نفس مظهر الثمار الطيبة، ومن شروط الشئ الطيب أن يكون خالياً من الغش ومن العيوب ظاهراً وباطناً، كما أنها

تؤدي إلى قتل أفراد من أمم أخرى خلقها الله ليكمل بها توازن الكون وسخرها جميعاً للإنسان سواء كان نفعها له مباشراً كالنحل وبعض الطير أو غير مباشر كبعض الطفيليات ما نعلم منها وما نجهل.

والنوع الثاني من الرش بالمبيدات هو الرش بمبيدات الأعشاب التي ترش لتقتل النباتات المنافسة لنباتات الإنسان، وعدا عن الأضرار الكبيرة التي تسببها هذه العملية للتربة ولنباتات الإنسان التي يرغب بها. فإنها قد تؤدي إلى استئصال أنواع نباتية خلقها الله سبحانه ضمن عملية توازن الكون ﴿**وأنبتنا فيها من كل شئ**﴾ (الحجر:١٩). ولها نفع ان لم نكن قد اكتشفناه فستكتشفه الأجيالب القادمة، والله سبحانه وصف كل أنواع النبات بالكرم. ﴿**أولم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم**﴾ (الشعراء: ٧). وهذا الوصف وحده كاف لاحترام كل أنواع النبات وحمايتها من الفناء.

والسؤال الذي يخطر بالبال الآن: ما العمل؟ وكيف نستطيع إصلاح هذا الخلل؟

١- تبدأ المعالجة من النظرة القرآنية الشمولية للبيئة النباتية وهي اتصافها بالتوازن. ﴿**وأنبتنا فيها من كل شئ موزون**﴾ (الحجر: ١٩) والنبات بأنواعه ومايعيش عليه من كائنات ظاهرة ومجهرية جزء من عالم متوازن.

٢- إذا ما حدث خلل طبيعي كانتشار آفة أو استفحالها فإن ذلك حسب التصور القرآني عائد إلى خلل في علاقات الناس بعضهم ببعض، فما الآفات (حيوية كانت أم طبيعية) إلا عقاباً من الله

للإنسان وهنا فإن على الناس أن يفكروا بسلوكهم كي يرفع عنهم العذاب ويسلم لهم رزقهم من الآفات والنقص.

ولابد هنا من التذكر أن المعالجة الكيماوية في حد ذاتها مخسر اقتصادي قد يعادل ضرر الآفة أحياناً، وهو في كل الأحوال أشد خطراً على صحة الإنسان من أضرار الآفة الطبيعية، وقد يكون في مقاومة الآفة بالكيماويات من الهم والألم والعذاب النفسي أكثر مما تسببه الآفة من نقص في الرزق، ولما كانت سعادة الإنسان هي الهدف الي نسعى إليه، فإن المعالجة الكيماوية لمشكلات النبات ليست هي الوسيلة الصحيحة.

٣ ـ لا مانع من استعمال المعالجة الكيماوية لحفظ النبات وثماره سليمة للإنسان إذا كان العمل محدوداً ولمعالجة آفة دورية، شريطة دراسة الأمر دراسة شاملة وعلمية بحيث لا تتجاوز الخسارة تكاليف المعالجة نفسها، بلغة أخرى يجب أن لا تؤدي المعالجة الكيماوية إلى إفساد في بيئة النبات أو ضرر بصحة الإنسان.

٤ ـ ومع هذا الاحتياط الخلقي يجب أن تصدر تشريعات دولية لحماية المستهلك من آثار الكيماويات المتبقية على الثمار.

٥ ـ ولما كان التوقف عن استعمال المبيدات الكيماوية مرة واحدة أمر مستحيل، نتيجة الخلل البيئي الذي وصل إليه عالم اليوم. فلابد من التفكير بخطة طويلة المدى يقلل فيها الاعتماد على المعالجة الكيماوية تدريجياً ليحل محلها المقاومة الحيوية، أي تشجيع الأعداء الطبيعيين لآفات النبات لتقوم هذه بمساعدة الإنسان في حماية نباتاته وثماره من الآفات.

ونكتفي بهذا القدر من الحديث عن النبات خشية الملل الذي قد تسببه المعلومات الفنية، خصوصاً أن التصور القرآني للنبات ولعلاقته بالإنسان يحمي حياة الاثنين من الخلل، فالنبات أزواج كريمة وثمار النبات الطيبة نعمة من الله للإنسان، وعلى الإنسان أن يحفظ أزواج النبات كريمة وثماره طيبة. وأن يستفيد من فكرة الجمال في النبات ليجمل نفسه من الداخل وحياته من الخارج.

ولابد أن نستعيد فكرة كفاية النبات للإنسان رزقاً، فعليه أن لا يبالغ في الجشع للحصول على المزيد من الربح بواسطة النبات لأنه بذلك قد يؤذي أخاه الإنسان، فالمبالغة في تسميد النبات مثلاً قد يؤذي الإنسان؛ واستنبات النبات في بيئة مائية خالية من التراب لنباتات خلقت لتعيش في التراب فكرة خطيرة إذا كانت غذاء للإنسان.

# سادساً : الحيوان :

الحيوان هو أقرب مخلوقات الله الأرضية إلى الإنسان. فمن الناحية الحيوية لا يوجد فرق كبير بين الإنسان وبين الحيوانات العليا. وفي بعض أنواع الحيوانات العليا بدايات نشاط ذهني كفهم الكلام والاشارة، وعقد علاقة ود أو عداء مع الإنسان، وقدرة على التدرب والقيام بأعمال نافعة للإنسان.

وقد أحاط التصور القرآني للحيوان بكل هذه الأمور بل زاد عليها، فأعطى للحيوان من الاهتمام أكثر مما أعطى للنبات، ودفع الإنسان إلى احترام الحيوان والاستفادة منه على الوجه الأنفع وتطويره إلى أبعد مدى ممكن عندما يكون قابلاً للتطوير.

فالقرآن يقدم الحيوان على أنه:

(أ) مخلوق من ماء كالإنسان. ففي سورة الأنبياء يقول ﴿ **وجعلنا من الماء كل شئ حي** ﴾ (٣٠) والاشارات إلى خلقه من تراب أو طين غير صريحة في القرآن، بل تحتاج إلى تأويل كقوله تعالى للمسيح ﴿ **وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير باذني فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني** ﴾ (المائدة: ١١٠).

وربما كان السبب أن بعض فصائل الحيوان لا تعيش على الطين ولا يمكن إثبات أصلها الترابي كالأسماك وكثير من الحيوانات البحرية، التي لا تحتاج إلى شئ ترابي الأصل لاستمرار حياتها.

( ب ) وهي أمم كالناس ولها منطق ولغات: ففي سورة الانعام:
﴿ **وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم. مافرطنا في الكتاب من شئ ثم إلى ربهم يحشرون** ﴾ ( ٣٨ ) وإذا كان الضمير في قوله يحشرون يعود إلى الطير والدواب فإن لها عند الله قدراً يقترب من قدرة الإنسان، وان لها قدرة ما، تصنع بها خيراً وشراً، وتستحق عليها عقاباً وثواباً، وتعقيباً على هذه الآية يقول صاحب تفسير الجلالين ( فيقضي بينهم ويقتص للجماء من القرناء ثم يقول لهم كونوا ترابا ).

بل يذكر القرآن حدثاً فريداً عن منطق الطير والدواب:
﴿ **وورث سليمان داود وقال يأيها الناس علّمنا منطق الطير وأوتينا من كل شئ إن هذا لهو الفضل المبين. وحشر لسليمان جنوده من الجن والانس والطير فهم يوزعون. حتى إذا أتوا على وادى النمل قالت نملة يأيها النمل ادخلوا مساكنكم. لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون فتبسم ضاحكاً من قولها وقال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والدىّ وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلنى برحمتك في عبادك الصالحين** ﴾ ( النمل: ١٦ - ١٩ ). فالطير والدواب في هذه القصة تنطق وتحارب إلى جانب الإنسان وتميز وتقدر على التوقع ووضع الحل المناسب للطوارئ القادمة.

( ج ) ويمكنها أن تعلم الإنسان مباشرة أو توحي له بأفكار جديدة كما يمكنها أن تنقل له الأخبار، فلولا الغراب ما عرف قابيل

كيف يدفن أخاه هابيل ( المائدة : ٣١ ) . ومن الطير استوحى الإنسان فكرة الطيران ، وهدهد سليمان جاءه بخبر مملكة سبأ ، والحمام الزاجل الذي ينقل الرسائل الخطيرة بين الناس ليس بعيداً عن هدهد سليمان الذي ورد خبره في سورة النمل ( ٢٠ ) .

( د ) ومنها ما هو قابل للتطوير والتعليم حتى يصل مرتبة يفهم فيها لغة الإنسان وإشاراته فيصاحبه ويطيعه ويقدم له العون ، بل قد يقوم بأعمال معقدة كالمشاركة في الصيد ، وصعوبة هذه الصفة ان حيوان الصيد مفترس بطبعه آكل للحوم ، ومع هذا يترقى ويفهم أن هذا الصيد لرفيقه الإنسان وليس له إلا أن يطعمه منه الإنسان ، وقد أشار القرآن إلى هذا في سورة المائدة ﴿ **يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات وماعلمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله . فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه واتقوا الله إن الله سريع الحساب** ﴾ ( المائدة : ٤ ) .

( هـ ) ولها من الله رزق مضمون بعضه خلق لها خصيصاً ﴿ **وكأين من دابة لا تحمل رزقها . الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم** ﴾ ( العنكبوت : ٦٠ ) . وفي سورة الأعلى ﴿ **والذي أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى** ﴾ ( ٤ -٥ ) .

( و ) وهي رمز نجاة وكبش فداء للإنسان ، ففي قصة إبراهيم لما صدق الرؤيا ، وهمّ بتنفيذ أوامر ربه وذبح ولده ، جاءه نداء السماء ﴿ **ياإبراهيم ، قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين . إن هذا لهو البلاء المبين ، وفديناه بذبح عظيم ،** ﴾ ( الصافات : ١٠٤ – ١٠٧ ) والذبح كما يقول المفسرون كبش من الضأن ذبحه إبراهيم فداء لولده .

( ز ) وهي جنود لله تتصرف بوحي الله المباشر إليها من خلال عقلها الغريزي والأمثلة القرآنية كثيرة على هذا منها ﴿ **وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون** ﴾( النحل : ٦٨ ) . وقد تتلقى من الله أمراً مباشراً يسلطها الله به على من يشاء من عباده عقاباً لهم كتسليط الجراد والقمل والضفادع على قوم فرعون ﴿ **فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقُمّل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين** ﴾ ( الأعراف : ١٣٣ ) .

( ح ) وهي مصدر جمال ومتعة، فهي في ذاتها زينة وفي قيمتها المادية قوة، وفي الاثنتين تكون المتعة والجمال، وفي سورة آل عمران جمعت الخيل مع المتع الأساسية ﴿ **زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث . ذلك متاع الحياة الدنيا** ﴾( آل عمران : ١٤ ) . وفي سورة النحل يقول سبحانه ﴿ **ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون** ﴾ ( النحل : ٦ ) .

( ط ) وهي وسيلة نقل تسهل حياة الإنسان . وبشرى بين يدي وسائل أكثر تطوراً، يقول الله سبحانه ﴿ **وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس، إن ربكم لرؤوف رحيم . والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون** ﴾ ( النحل : ٧-٨ ) .

وقد أشار القرآن إلى خلق وسائل نقل جديدة في أماكن أخرى من القرآن؛ والخلق في القرآن قد يكون بيد الله كخلق الأنعام أو بعمل

من الناس باستعمال قوانين خلقها الله، ومن مواد خلقها الله، وقد قال عن الأنعام أنها مما خلق بيده تلميحاً إلى أن وسائل أخرى قادمة ستكون ما يخلق بيد الإنسان ﴿ **أو لم يروا أنّا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون** ﴾( يس: ٧١ ).

( ي ) ومصدر دفء وكساء للإنسان : في سورة النحل ﴿ **والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون** ﴾ ( النحل: ٥ ) بل من جلدها يصنع الإنسان ملابسه وبيته أحياناً.

( ك ) لذلك كان لها حرمة، فلم يأذن الله بأكل ما أجاز أكله منها إلا بعد ذبحه بمراسم فيها استئذان من الله عز وجل، يقول سبحانه: ﴿ **ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وانه لفسق** ﴾ ( الأنعام: ١٢١ ). لقد حمى الله سبحانه وتعالى حياتها فلم تمس إلا بإذنه ووفق شروط معينة تراعي فيها مصلحة الإنسان والكون معاً. فهذه التي أحل الله أكل لحومها بالزكاة الشرعية هي بهيمة الأنعام ﴿ **أحلَت لكم بهيمة الأنعام إلا مايتلى عليكم غير محلى الصيد وأنتم حرم، إن الله يحكم مايريد** ﴾( المائدة: ١ ).

( ل ) وحرم الإسلام أكل ماخبث من الحيوان كالسباع وجوارح الطير، والخنزير والطير التي تتناول الطعام القذر، وربط القرآن دائما لحم الخنزير مع مادتين ملوثتين مؤكدتي الضرر هما الميتة والدم. ووصف الثلاثة بأنها رجس.

( م ) وهي طاقة لا يجوز الإسراف في استهلاكها أو العبث بها أو تضييعها دون فائدة للإنسان أو لنفسها. جاء في سورة المائدة ﴿ **ماجعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام، ولكن الذين**

**كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون﴾** (المائدة:١٠٣). وينقل صاحب الجلالين في تفسير هذه الآية عن البخاري قوله: البحيرة التي يمنع درها للطواغيت فلا يحلبها أحد من الناس، والسائبة التي كانوا يسيبونها لآلهتهم فلا يحمل عليها شيء. والوصيلة الناقة البكر التي تبكر في أول نتاج الابل بأنثى بعد بأنثى، وكانوا يسيبونها لطواغيتهم، والحام فحل الابل يضرب الضراب المعدود فإذا قضى ضرابه ودعوه للطواغيت وأعفوه من الحمل وسموه الحامي.

والآية (٣-المائدة) نهت عن كل هذه العادات لأن فيها تضييعاً لطاقات نافعة.

(ن) ومصدر رزق طيب حلال شهي نافع للإنسان، فعن البحر وسمكه يقول القرآن ﴿**ومن كل تأكلون لحماً طرياً**﴾ (فاطر: ١٢). وعن النحل وعسله ﴿**ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس، إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون**﴾ (النحل:٦٩). وعن لبن الانعام يقول ﴿**وان لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبناً خالصا سائغاً للشاربين**﴾ (النحل:٦٦).

هذه هي التصورات التي رسمها القرآن الكريم لعالم الحيوان. فكيف كان تمثيل النبي ﷺ والمسلمين لهذه التصورات؟.

نقلنا في فصل الماء والهواء من هذه الورقة قصة الرجل الذي غفر الله له لأنه عطف على كلب. فأحضر له ماء من بئر وسقاه بخفه. وينقل عن نبي الإسلام ﷺ أنه حدث عن امرأة تدخل النار يوم

القيامة بسبب قطة حبستها فلا هي أطعمتها ولا تركتها تأكل من خشاش الأرض.

ومن رفق المسلمين بالحيوان أن النبي ﷺ نهى عن قتل الحيوان إلا لمأكله. إذ قال (**من قتل عصفوراً عبثاً عجّ إلى الله يوم القيامة يقول: يارب إن فلاناً قتلني عبثاً ولم يقتلني لمنفعة «النسائي*» كما نهى النبي عن اتخاذ الحيوان هدفاً يرمى، روى مسلم** في صحيحه عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: لا تتخذوا شيئاً فيه الروح غرضاً**).

وقد شجع الرسول ﷺ مبدأ الحمى لرعي الماشية، وتابعه على ذلك المسلمون من بعده، فصارت الأنعام مصدر اغناء للبيئة النباتية بدل أن تكون مصدر دمار وافناء، ففي قوانين الحمى أن ترعى ماشية القوم في جزء من حماهم عاماً أو عامين. ثم تنتقل في الدورة الزمنية التالية إلى جزء آخر من الحمى ليستعيد الجزء السابق قوته ونباته.

ولما جاء العصر الأموي أضاف الأمراء الأمويون إلى الحمى فكرة الحائر، ونشروا الحيران (جمع حائر) في بوادي الشام خصوصاً بادية الأردن، إذ فيها أكثر من عشرة حيران يحيط معظمها بقصور بني أمية الصحراوية، والحائر بحيرة صغيرة صناعية، تخفض أرضها وتمهد ليجتمع فيها ماء الشتاء، فيكثر حوله العشب فيصير مرعى وتجتمع حوله حيوانات الصحراء خصوصاً الغزلان والمها بالإضافة إلى الانعام المدجنة.،ويسقى منه الناس أنعامهم وينعمون بصيد أسراب الحيوانات البرية التي ترده.

---

(*) النسائي (شرح السيوطي، المكتبة العلمية، ٧/ ٢٣٩).

(**) صحيح مسلم (دار الفكر ٦/ ٧٣).

واستمرت العناية بالحيوان وأحكامه وماينفعه ومايىنفع له حتى تقدم الزمن بالمدينة الإسلامية، فظهر الدارسون العلميون. فدرسوا الحيوان باهتمام بالغ. وألفوا كتباً متخصصة بأحوال الحيوان ككتاب الدميري وكتاب الجاحظ. وفي عجائب المخلوقات للقزويني ذكر لخصائص ١٢٦ نوعاً من الحيوانات بعضها غير موجود في بلاد العرب.

وأهم مايهمنا الآن المحافظة على نظافة بيئة الحيوان لحماية أنواع من الانقراض والمحافظة على مايؤكل منه طيباً طاهراً، فتلويث البحر مثلاً يؤدي إلى تلويث حيواناته، وتلويث الهواء يقتل الطير أو يلوثها، وتلويث النبات ليس أقل خطراً على الانعام التي تتغذى عليه.

ولسنا هنا بحاجة إلى إعادة ماذكرناه في مجال المحافظة على نظافة الماء والهواء وحماية الماء من المبيدات، فهو عالم واحد أو بيت واحد للنبات والحيوان والإنسان، وتلويث أي جزء منه سيؤدي بالضرورة إلى إيذاء بقية الأجزاء.

ويبقى أن أذكر عند هذه النقطة أن الإنسان لا يستغنى عن الحيوان في حياته، فإن جسده بحاجة إلى أحماض ومواد لايمكن الحصول عليها إلا من الحيوان، بالإضافة إلى حاجته إليه في أعماله اليومية.

## سابعاً : الإنسان :

قد يبدو غريباً أن نتحدث عن الإنسان كونه جزءاً من بيئة الإنسان لكن المعروف علمياً أن أفراد أي نوع من الكائنات هي جزء من بيئة نوعها. وقد عرض القرآن علاقة الإنسان بالإنسان كونها جزءاً من البيئة المؤثرة في حياة الإنسان، بل ان علاقة الإنسان بالإنسان تشبه في حقيقتها ومظهرها علاقة النوع بنفسه وعلاقة الأنواع المختلفة بعضها ببعض من الناحية البيئية، فداخل النوع تكون العلاقة غالباً تنافسية، أو تكافلية، ويكون الغزو والصراع والتكافل بين الأنواع المختلفة. ولكن في حال النوع الإنساني توجد هذه العلاقة جميعاً وربما في وقت واحد رغم أنه نوع واحد. ويشبهه في ذلك قليل من أنواع الحيوان. من أجل كل هذا أفردت فصلاً لعلاقة الإنسان بالإنسان كونها قضية بيئية ومن زاوية القرآن الكريم.

وقد حرص القرآن الكريم على إيجاد بيئة ممتازة للإنسان منذ مولده. كما أورد أحكاماً تفصيلية لاستمرار البيئة سليمة محمية من الفساد، بحيث تضمن للإنسان الاستمرار في الحياة والتكاثر والعيش في جو من السعادة والحرية والسواء بعيداً عن كل مايعكر صفوه أو يدنس نفسه أو يجلب له العقد والإنحرافات النفسية. ومن التصورات والأحكام التي وصفها القرآن لهذا الغرض نختار مايلي :

## (أ) وحدة الأصل البشري:

حرص القرآن في كثير من سوره على أن يذكر قصة آدم وحواء ليذكر الناس جميعاً أنهم أبناء رجل وامرأة واحدة، فهم اخوة في الدم أصلاً يحملون نفس السمات وتضبط حياتهم نفس العوامل الوراثية التي حملها أبوهم آدم، وبعيداً عن قصة الخلق وجه القرآن نداءات واضحة عالية النبرة بهذا الخصوص ففي سورة النساء نقرأ ﴿ **ياأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً** ﴾ (النساء: ١).

## (ب) قدسية الحياة الإنسانية:

فكل فرد من بني آدم مخلوق بإرادة الله وعلمه. فلا يجوز الاعتداء على هذه الارادة بقتل أحد إلا إذا كان في قتل فرد ما حياة لبقية افراد مجتمعة؛ فعن الخلق يقول القرآن ﴿ **الله يعلم ما تحمل كل أنثى وماتغيض الأرحام وماتزداد وكل شيء عنده بمقدار** ﴾ (الرعد: ٨) وفي هذه الآية رد على كثير من الأسئلة التي قد تطرأ بشأن الشيخوخة عندما يصل صاحبها مرحلة عدم الوعي وفقد العقل.

وفي مجال حفظ حياة الفرد نقرأ في سورة المائدة ﴿ **من أجل**

**ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً، ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ثم ان كثيراً منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون﴾** ( ٣٢ : المائدة ).

## ( ج ) العلاقة بين الزوجين:

حرص القرآن الكريم على قيام علاقة ودية بين الزوجين ورعاها بأحكام سليمة صالحة لأمرين كلاهما بيئي.

الأول: أن يعيش الزوجان بسعادة وهناء وثقة متبادلة كي تستمر الحياة بينهما برضا وسعادة، ولا يكون أحدهما مصدر شقاء ونكد للآخر.

والثاني: كي يكون البيت عشا سويا لحياة إنسانية جديدة سليمة، فيولد الأبناء في بيت طبيعي خال من الخلافات والمنازعات. وينشأون نشأة سوية خالية من الانحرافات والعقد النفسية.

فمنذ البدء تحدث القرآن عن العلاقة السليمة بين الزوجين فقال ﴿**هن لباس لكم وأنتم لباس لهن**﴾ (البقرة: ١٨٧) وفي سورة الروم- ٢١- نقرأ: ﴿**ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون**﴾.

وهذا النوع من العلاقة القائم على الود والسكن النفسي إلى الشريك والشعور بالقرب منه والاحتياج إليه كأنه اللباس الذي يستر

الجسد، هو الذي ينشيء ابنا سوياً، وان أي نقص أو انخفاض عن هذا المستوى في العلاقة سيؤدي إلى تشوه ما في نفس الابن الناتج عن هذه العلاقة، وبقدر الخلل في العلاقة يكون التشوه في نفس الأبناء. ولسنا بحاجة إلى نظرية محددة في علم النفس لنثبت هذا، فمعظم علم النفس قائم على هذه المشاهدات.

وقد صان القرآن العلاقة الزوجية بأحكام قطعية تبدأ قبل بدء العلاقة نفسها، وليس في أحكام الحياة الزوجية حكم واحد لم يأخذ في اعتباره مصلحة الجيلين المتتابعين: جيل الزوجين وجيل الأبناء الناتج عن تلك العلاقة.

فقبل الزواج يجد المرء أن بعض النساء محرمات عليه لا يحق له الزواج منهن؛ كالأم والأخوات والعمات والخالات وأصولهن؛ ومثل ذلك الأم في الرضاعة والأخت في الرضاعة.

وإذا كانت الأجيال البشرية قد تعودت في مراحل مبكرة أن النفس تعاف الزواج من أقارب الدرجة الأولى دماً، فإنها ماكانت لتكتشف ذلك بالنسبة لقرابة الرضاعة لولا الدين، الذي جعل الناس يحرصون على تسجيل الحقائق، وتذكر اخوة الرضاع.

ويأتي علم الوراثة الحديث ليؤكد أن التزاوج بين الأقارب يؤدي إلى نشوء أجيال ضعيفة نتيجة عزل العوامل الوراثية وتركيزها.

ثم يجد المهر عقبة انتخابية في طريقه. والمهر الذي يتعرض لجملة انتقادات منذ فرضه الله حتى اليوم. له فوائد كثيرة. فهو كما قلنا عقبة

انتخابية ككل عقبات الطبيعة التي تفني الضعيف وتبقى الصالح للبقاء من المخلوقات، ومع أن المهر الشرعي ليس بقسوة عقبات الطبيعة، إلا أنه عائق ما على الرجل أن يجتازه ليثبت أنه يستطيع أن يتحمل مسؤولية الزواج.

والقدرة على جمع الرزق علامة على استحقاق الحياة، والناس يتفاوتون بها، لذلك تتفاوت حظوظهم في الزواج، وربما أثر ذلك الحظ في مستوى أجيالهم، فالأقدر منهم أولى بالأحسن من النساء وبالتالي يكون جديراً برفع مستوى أجياله التالية، فالمرأة المهذبة المولودة في بيت أخذ بقسط أوفر من التمدن أجدر بأن تنجب أبناء أقوى وأكثر قابلية للتطور. كما تكون هي نفسها أعلم بشؤون التربية وإنشاء الأبناء.

هذا عن دور المهر في تحسين الأجيال القادمة، ولكن له أدوار أخرى في حياة الزوجين، إذ يزيد من حرص الزوج على زوجته، ويعلم أن الحياة الزوجية ذات ثمن غال لا يصل إليه إلا بأقصى جهده أحياناً، فلا يعبث به، وقد قارن القرآن بين المهر من الرجل والجمال من المرأة. والمهر محصلة قوة، فكأن جمال المرأة يعادل قوة الرجل، وهو توجيه آخر جميل للحياة الزوجية، فالرجل للقوة والمرأة للجمال فيتقابلان ويتكاملان ويعطي كل منهما لصاحبه مما عنده ويأخذ منه مايحتاج إليه. وينشأ الأبناء على هذا كل يعرف دوره، فالذكور للقوة والاناث للجمال.

ثم تأتي أحكام أخرى تفصل حدود العلاقة الزوجية وتحميها من كل ماقد يؤذيها أو يشوهها كي يبقى عش الزوجية آمناً محاطاً بالثقة

والحب. لا تهب عليه رياح شك أو خصام.

فالزوجة الوفية الرضية آمنة في بيتها، رزقها مضمون دون عناء منها فالانفاق من واجبات الزوج، وهي سيدة بيتها لا تخشى أن ينازعها في ذلك أحد، لا ضرة ولا حماة، فالبيت الشرعي في الإسلام يضمن للزوجة حرية واستقلالاً لا نزاع فيهما، وحكاية الضرة وتعدد الزوجات التي اتهم بها الإسلام لم تكن سوى سوء فهم من أصحاب الشهوات لدين الله. فالقرآن هو أول نص سماوي يحدد عدد الزوجات. بل يقصره على واحدة. ويترك استثناء واحداً مقيداً بقيود عديدة. ﴿**وان خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ماطاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع. فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ماملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا**﴾ (النساء: ٣).

فالشرط هنا ليس العدل فقط، لكن الهرب من ظلم. ﴿**وان خفتم ألا تقسطوا في اليتامى**﴾. وهو شرط مشكوك فيه بدليل استعمال ان وليس إذا. فالغالب أن يعدل الناس في أمور اليتامى؛ ثم من هو هذا المخاطب الخائف من الظلم؛ لابد أنه رجل بيده مسؤولية وولاية ويخشى عليه ألا يقسط بين الناس خصوصاً اليتامى منهم، وفي ثنايا الكلمات تلميح إلى أن النساء وفتنتهن سبب ذلك الخوف، فإن حدث هذا فيستطيع ذلك الخائف من أن يظلم أن يتزوج على أن لا يظلم، زوجته.

فتعدد الزوجات علاج لحالة ما يخشى على صاحبها فتنة الظلم فإيذاء المجتمع، وهو مشروط بأن لا يظلم ذلك الرجل نفسه وأهل بيته لحساب المجتمع أيضاً، وإلا فخير له ألا يتورط أصلاً.

وآخر الأحكام التي تستحق أن تذكر كونها مفخرة للقرآن هي الطلاق فإذا انحرفت الحياة الزوجية عما وضعت له، وحل الاضطراب محل السكن، والخصام محل الود، وأمسى كل من الزوجين مصدر نكد وشقاء لزوجه، وصار البيت حضانة سوء وصار مصير الأبناء مهدداً من داخل نفوسهم بالانحرافات النفسية والخلقية، جاء القرار الحاسم بإنهاء تلك العلاقة غير السوية، وتحرر كل زوج من قيده المدمر ليبحث له عن عش جديد وحياة جديدة تكون أنسب له وأهدأ بالاً.

ثم لا ينسى القرآن أن يضمن للمرأة المطلقة مصدر رزق من مطلقها، ويضع التشريعات المناسبة لحضانة الأطفال وحمايتهم تحت جناح الأب المناسب بدل ضياعهم بين نكد الأبوين وخلافاتهما.

ولابد أن نتذكر أن الطلاق استمرار لفكرة الحرية الفردية التي أطلقها القرآن ليصنع بها الإنسان السوي المسؤول عن أعماله، القادر على مواجهة أعباء حياته. وماهذا الأ جزءاً من خطة اعداد بيئة سليمة للإنسان.

## (د) تنظيم النسل:

بعد أخذ الاحتياطات الكافية في اعداد بيت الزوجية وجعله بيئة مناسبة لانجاب انسان المستقبل، تأتي قضية حضانة المولود الجديد في ظروف مريحة له ولوالديه.

فرضاعة الطفل من ثدي أمه يجب أن تستمر عامين كاملين لا ينافسه فيها طفل آخر حتى لو كان من أمه وأبيه، يقول القرآن الكريم

﴿ **والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة** ﴾ (البقرة: ٢٣٣). هذه هي حالة التمام أي أنضج الحالات وأفضلها لذلك قال عنها ﴿ **لمن أراد أن يتم الرضاعة** ﴾ . والتمام درجة في العمل فوق درجة الكمال، لذلك يجوز أن تكون الرضاعة أقل من ذلك في حالات أخرى كالذي ورد في سورة الأحقاف: ١٥ – ﴿ **وحمله وفصاله ثلاثون شهرا** ﴾. فانخفضت مدة الرضاع هنا إلى واحد وعشرين شهراً.

وبهذه الأحكام والتلميحات إلى الناس ضمان أن يكون فاصل بين كل شقيقين متتابعين لا يقل عن عامين ونصف العام مما يعطي للطفل فترة حضانة كافية ومناسبة وإذا حسبنا عمر إنتاج الأطفال للأسرة العادية عشر سنوات كان عدد أبنائها ٤–٥ أطفال، وهو عدد جيد يضمن نوعية من الناس مناسبة للحياة والتقدم، كما يلاحظ على صحة الأم وراحة الأب، والمستوى الاقتصادي والمعيشي الجيد للأسرة كلها.

## (هـ) احترام الأمومة والأبوة:

ربط القرآن الاحسان إلى الوالدين بعبادة الله بل جعل الدعاء لهما صلاة في الصلاة فنقرأ في سورة الاسراء (٢٣–٢٤) ﴿ **وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا. إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما. واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا** ﴾. إن مثل هذا التصرف من الابن تجاه أبويه يثلج

صدريهما ويعوضهما بعض ما قاسيا من أجله منذ كان في بطن أمه حتى صار إنساناً مستقلاً قادراً على إدارة شؤون نفسه.

ومثل هذه العلاقة بين الابن وأبويه، التي تقوم على التواضع والاحترام حتى لا تخرج كلمة أف من شفتي ولد تجاه والديه كفيل بخلق بيئة ممتازة، وجعل الامهات والآباء يقبلون على الأنجاب في حدود التعليم الإلهي، كما يربون أبناءهم وهم غير خائفين من العواقب السيئة، بل على العكس ينتظرون أحسن الجزاء، فمن ينجب ولداً صالحاً يتقيد بتعاليم القرآن لا يخشى شيخوخة مهينة، بل يتوقع شيخوخة صالحة ليس فيها أفٍ. ولتركيز هذه الحالة في البيئة المتبادلة بين الآباء والأبناء حرص على تذكير الأبناء بمقاساة الامهات من أجل أبنائهن ﴿ **ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن وفصاله فى عامين أن أشكر لى ولوالديك، إلىّ المصير. وان جاهداك على أن تشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً واتبع سبيل من أناب إلىّ ثم إلىّ مرجعكم فانبئكم بما كنتم تعملون** ﴾(لقمان: ١٤-١٥). فرغم دعوتهما للشرك لا يحق للابن أن يقاطعهما أو يعنفهما بل ان يصاحبهما بالمعروف ويترك أمر المعتقدات إلى الله ليحكم فيها يوم القيامة.

## ( و ) الأنوثة والطفولة :

في القرآن اهتمام واضح بالأنوثة، فهو يضع المرأة بجانب الرجل، ويعطيها نفس الحقوق، ويحرص على أن تأخذ حقها غير منقوص، ويعيب على الذين يفضلون الذكر على الأنثى ﴿ **وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم، يتوارى من القوم من سوء مابشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب، ألا ساء مايحكمون** ﴾ ( النحل: ٥٨-٥٩ ) وفي مثل هذا المعنى قال معنفاً قاتلي بناتهم ﴿ **وإذا المؤودة سئلت بأى ذنب قتلت** ﴾ ( التكوير: ٨-٩ ). وقتل الطفولة ممنوع في القرآن. سواء كان القتيل ذكراً أو أنثى. ﴿ **قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وماكانوا مهتدين** ﴾( الانعام: ١٤٠ ) وفي سورة الاسراء نهي صريح عن قتل الأولاد خشية الفقر ﴿ **ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئاً كبيراً** ﴾ ٣١ .

وكلما كانت الطفولة كان اهتمام القرآن بها أكبر. لذلك نجد اهتماماً بالغاً باليتيم ذكرا أو أنثى ﴿ **ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولا** ﴾ ( الاسراء: ٣٤ ).

## (ز) القتل والقتال حماية للحياة والحرية:

قتل الإنسان ليس مباحاً ولا هو سهل على النفس، لكن عندما تصير حياة فرد خطراً يهدد حياة المجتمع بأسره أو أفراد منه، ففي قتله حياة لبقية الناس، وتطهير لبيئة المجتمع من خطر كبير سواء بفعله أو بما يسببه من عدوى الشر بين الناس، لذلك كانت حكمة القرآن البالغة ﴿**ولكم في القصاص حياة ياأولى الألباب لعلكم تتقون**﴾ (البقرة: ١٧٩).

كما أباح للمجتمع أن يحمل السلاح ويقاتل دفاعاً عن نفسه لكنه نهاه عن أن يبدأ قتالاً أو يعتدي ﴿**وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين**﴾ (البقرة: ١٩٠). وأمر بالقتال دفاعاً عن حرية المستضعفين من الرجال والنساء والأطفال يقول تعالى ﴿**ومالكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً**﴾ (النساء: ٧٥).

## (ح) الاستقلالية وحرية الرأي:

الإنسان المسؤول عن آرائه وتصرفاته، المتحرر من قيود التبعية هو هدف الإسلام، والقرآن يضع معظم أحكامه وتشريعاته على قاعدة

الإنسان المسؤول عما يرى ويفعل، وقد أثبت هذا الأصل في مواطن عديدة من القرآن الكريم، ففي سورة إبراهيم سخرية بالغة ممن يتبع سواه دون تمحيص، أو يعتقد عقيدته على مسؤولية سواه من الناس يقول الله سبحانه: ﴿**وبرزوا لله جميعاً، فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً، فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء. قالوا لو هدانا الله لهديناكم، سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص**﴾ (إبراهيم: ٢١).

وفي سورة النحل تعالج نفس القضية بأمثلة حية، فيشبه متحرر الرأي بالإنسان الحر الواعي المريد ويشبه الآخر بعبد مملوك أبكم ينتظر التوجيه من سواه ﴿**ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شئ ومن رزقناه منا رزقاً حسناً فهو ينفق منه سراً وجهراً، هل يستوون، الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون، وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شئ وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير. هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم**﴾ (النحل: ٧٥-٧٦).

وفي سورة مريم تعالج قضية التحرير بنتائجها إذ يقول سبحانه: ﴿**وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً**﴾ (٩٥). فما دام يحشر فرداً فلماذا يتبع سواه، ولماذا لا يحمل مسؤولية عمله وموقفه من قضايا الحياة وحده؟

هذا ما يخطر بالبال. وهو ماقصدت إليه آيات أخرى مثل قوله تعالى: ﴿**ألاَّ تزر وازرة وزر أخرى**﴾ (النجم: ٣٨). وإذا كان التفاضل بين الحرية من جهة وبين التمسك بالوطن من جهة أخرى

فالقرآن مع اختيار الحرية، بل يحمّل من يختار الوطن والهوان مسؤولية ذنبه ويسميه ظالماً لنفسه ويعده بنار جهنم يقول في سورة النساء ﴿ **إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم، قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها. فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا الا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لايستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً. فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفواً غفوراً** ﴾ (النساء: ٩٧-٩٩). فالإنسان مطالب بأن يصنع حوله البيئة التي تمكنه من العيش بحرية إلا إذا كانت قيود البيئة أقوى فعلاً من قدراته فقد يكون له عذر.

## (ط) الإنسان والعقيدة والدعوة:

الدعوة إلى المبادئ والعقائد قضية قديمة، وهي قضية باقية مابقي على الأرض أناس من بني آدم، ولطالما كانت سبباً في حروب. وربما قامت عليها حروب نعاني منها هذه الأيام. ولا ندري مايكون الأمر بالغد، هل سيبقى الناس يتحاربون نتيجة اختلافهم في الرأي والعقيدة؟ وهل سيبقى في الأرض أناس متحمسون لعقائدهم إلى درجة إكراه الناس على اعتناقها؟ مهما يكن الأمر فقد كان القرآن دائماً ضد هذا الموقف المتحمس بل لقد عاتب القرآن النبي ﷺ على حماسه لدعوة الناس إلى الإسلام، يقول الله تعالى في سورة الكهف

﴿ **فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا** ﴾ ( الكهف: ٦ ). وفي القرآن آيات أخرى بنفس المعنى وفيها نفس الألفاظ أحيانا.

والآيات التي تحصر وظيفة النبي ﷺ بالتبليغ كثيرة العدد، وقد جاء بعضها بنبرة قوية كي لا يتجاوز الداعية حده، فيظن أنه ما دام على الحق فله على الناس حق الطاعة والاتباع: فيقول الله لنبيه ﴿ **فذكر إنما أنت مذكر. لست عليهم بمسيطر. إلا من تولى وكفر فيعذبه الله العذاب الأكبر. إن إلينا إيابهم. ثم إن علينا حسابهم** ﴾ ( الغاشية: ٢١-٢٦ ). وفي سورة يونس حيث يشتد الحوار بشأن من يؤمن بالله ومن لا يؤمن يقول تعالى مذكراً نبيه ﴿ **ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين؟** ﴾ ( يونس: ٩٩ ). وآية سورة يونس هذه لا تنهي عن اكراه الناس على العقيدة وحسب بل تلفت الانتباه إلى قضية أخرى هامة. وهي اختلاف الناس في العقيدة بناء على خطة الهية، فلو شاء الله لآمن من في الأرض كلهم جميعا، كما تقول الآية. لكن الله سبحانه أراد أمرا آخر، وهو اختلاف الناس في العقيدة، وتنوع مذاهبهم، وذلك ليستمر الاحتكاك والتنافس بين الناس أو لأمور أخرى يعلمها الله. لكنها في المحصلة لمصلحة التقدم البشري. فالحياة بدون اختلاف وتنافس بين مجموعات البشر ستبقى حياة راكدة مرشحة للتحجر أو الزوال.

وفي سورة هود نجد القضية نفسها بوضوح لا يحتاج إلى تأويل إذ يقول تعالى: ﴿ **ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة. ولا**

**يزالون مختلفين. إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾** (١١٨-١١٩).

وإذا غضضنا الطرف عن موضوع جهنم المذكور في الآية. لأنه لا ينخفض إلى مستوى القضية العقلية على رأى الفلاسفة، يبقى أمامنا مخطط رباني يتعمد اختلاف الناس لتتقدم حياتهم، خصوصاً أن هاتين الآيتين مسبوقتان بآيات تتحدث عن إصلاح الأرض على يد المصلحين أو إفسادها على يد الظالمين.

وهذا الموقف يجرنا إلى الحديث عن أدب الدعوة إلى عقائدنا ويأتي جواب القرآن الكريم منسجماً مع فكرته عن اختلاف الأمم في عقائدها، ففي سورة النحل يخاطب القرآن محمداً ﷺ قائلاً: **﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هى أحسن، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾** (النحل: ١٢٥). فالدعوة بالموعظة الرقيقة والحكمة المقنعة. والجدال المسموح به باللين الجميل من القول.

والتوجيه هنا بشأن دعوة الناس عامة، لذلك نراه بصيغة عامة بدون تحذيرات أو تشديد **﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾** أما إذا كانوا على دين سماوي فالتشديد على الإحسان والتحذير من قسوة القول واجب لا يستغنى عنه لذلك كانت الصيغة الواردة بشأن جدال أهل الكتاب **﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن، إلا الذين ظلموا منهم، وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم والهنا والهكم واحد ونحن له مسلمون﴾** (العنكبوت: ٤٦) وكائناً من كان المدعو إلى دين الله فلابد من المحافظة على حبل الود موصولاً

معه. ولابد من التجاوز عن غضبه أو قسوته بالقول جاء في سورة فصلت ﴿ **ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين. ولا تستوي الحسنة ولا السيئة، ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم** ﴾ (فصلت: ٣٣ ـ ٣٤). ونتابع الموضوع في القرآن الكريم فنطلع على جوانب أخرى للأمر، نقرأ في سورة الانعام قول الله تعالى ﴿ **ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم كذلك زينا لكل أمة عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون** ﴾ (١٠٨).

ويبدو الجزء الأول من الآية مفهوماً لنا وعادياً من ناحيتين: الأول أنه يتفق مع ماسبق من أحكام الدعوة كاللين والجدال بالتي هي أحسن، والثانية هي التبرير المنطقي الوارد فيه، فإن سب الهة المشركين قد يدفعهم للرد العفوي المنفعل فيسبوا الله بغير علم، ولكن الجزء الثاني من الآية يحتوي على فكرة مختلفة عما في الجزء الأول وما في الآيات السابقة، فالله سبحانه هنا يحدثنا عن أمر نفسي لنعذر غير المؤمنين عندما يصرون على إنكار الله أو عبادة سواه، لأن الله سبحانه هو أعلم بأحوالهم والقادر على هدايتهم ﴿ **كذلك زينا لكل أمة عملهم** ﴾. فالله سبحانه زين لهم ماهم به، ليفتنهم فيه.

وهذه ليست الآية الوحيدة التي تعرض الأمر على هذا النحو ففي سورة النمل: (٤) يقول تعالى: ﴿ **إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون** ﴾.

والأمر في الآية الثانية واضح تماماً، فهم يعمهون محتارين، وتعليلي للأمر أن الله سبحانه يريد للإنسان أن يعيش على الأرض

بأقل قدر من الاضطراب النفسي وأكبر قدر من الانسجام النفسي، وفي كل من آية الأنعام (١٠٨) والنمل(٤) يفضل سبحانه للإنسان حالة الإنسجام النفسي والمضي في طريقة حياته راضياً ومنتجاً على أن يضطرب ويتحطم عندما يفاجأ بحقائق لا يستطيع تصورها أو كان قد بنى حياته على معطيات تعاكسها تماماً، حتى لو كانت هذه الحقائق هي الإسلام.

إن في نفس كل إنسان نسق مايأخذ بعضه برقاب بعض وهو في معظم الحالات نسق نفسي مستقر يعين الإنسان على مواصلة حياته وعطائه. وأي خلل بهذا النسق النفسي يؤدي إلى الحيرة والاضطراب النفسي، أو مانسميه بالأمراض النفسية، ومعروف أن المضطرب نفسياً لا يستطيع أن يعطي ولا يكون عنصر نفع للمجتمع، بل هو عنصر مدمر وقد يكون معدياً في بعض الأحيان، وقلب مفاهيم إنسان أو قناعاته في العقيدة ومبادئ الحياة دون اعداد لذلك القلب أو دون اقناع به واقتناع يؤدي إلى حالة من الاضطراب لا تختلف عن المرض النفسي، بل قد تكون أشد، ولطالما عرفت شخصياً أناساً ناضجين اصيبوا باضطراب نفسي، بل ترك بعضهم الصلاة لمجرد أن بعض مسلماته بشأن بعض رجال الإسلام القدامى قد تحطمت. وكانوا قبل ذلك يعرفون بالتعبد المنتظم الذي نسميه تديناً، وإذا صح ظنى في تأويل الآيتين المذكورتين فإن القرآن يكون قد حرص على تهيئة البيئة النفسية السليمة للإنسان على حساب الدعوة الإسلامية نفسها وهذا أمر يستحق التأمل.

## (ي) الرزق والمال:

الرزق هو أحد أبرز العوامل البيئية التي تؤثر في حياة الإنسان وفي علاقة الإنسان بالإنسان، وهو عامل تحرر للإنسان عندما يتوفر بيده، وعامل ضعف وتبعية عندما لا يقدر عليه.

وقد عرض القرآن موضوع الرزق من جوانب عديدة، وحرص دائماً على توفيره لكل إنسان في المجتمع مهما كان دين ذلك الإنسان أو عرقه. واعتبر المجتمع مسؤولاً إذا احتاج الرزق فرد واحد ولم يحصل عليه.

وفي السورة التي خصصها الله سبحانه لتوضيح معنى مصطلح الدين كانت قضيتا اطعام المسكين وعدم اهانة اليتيم هي الموضوع الرئيسي الذي يعرف به الدين الحقيقي من الرياء. ﴿**أرأيت الذي يكذب بالدين؟ فذلك الذي يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين، فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون. الذين هم يراءون ويمنعون الماعون**﴾ (سورة الماعون).

ونبه القرآن الكريم إلى علاقة الرزق بالحرية الفكرية وباتباع ماتعتقده النفس فقال في معرض الإيمان بالله والتحرر من طاعة سواه ﴿**قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السموات والأرض، وهو يطعم ولا يطعم، قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين**﴾ (الأنعام: ١٤) فمادام أمر الرزق بيد الله فلماذا يعبد

المؤمن سواه؟ وفي سورة الطلاق وعد الله عباده المتقين بالرزق الكريم كي لا يخضعوا لضرورة ﴿ **ومن يتق الله يجعل له مخرجا. ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ آمره قد جعل الله لكل شئ قدرا** ﴾ (الطلاق: ٢ ـ ٣).

من جهة أخرى تعرض سورة المنافقين قضية التحرر العقدي وارتباطها بالمال من وجهة نظر أعداء العقيدة، الذين يريدون أن يفتنوا أصحاب النبي بالتضييق عليهم في الرزق ﴿ **هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا، ولله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون** ﴾ (٧) وفي نفس هذه السورة لا يلجأ القرآن إلى معجزة للرد على فتنة المنافقين بل يدعو المؤمنين للإنفاق على اخوانهم الفقراء (الآية: ١٠) ويهددهم بالندم إن لم يفعلوا.

ويذكر القرآن أن الناس يتفاوتون في الرزق. وأن هذا التفاوت بإذن الله وجزء من عملية ابتلاء الله للإنسان في الأرض، فقد رأينا في فصل الطاقة والمعادن أن جمع الذهب والفضة وبقية مظاهر الرزق والمال شهوة من شهوات الإنسان، فهي إذا مناط اختبار لتتفاوت أقدار الناس ويعرف قويهم من ضعيفهم، لذلك لا يخفي القرآن الكريم حقيقة تفاوت الناس في الرزق، ودور الارادة الإلهية في هذا الأمر، ففي سورة الروم (٣٧ ـ ٣٩) نقرأ ﴿ **أولم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون. فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ذلك خير للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون. وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا**

**يربو عند اللّٰه، وما آتيتم من زكاة تريدون وجه اللّٰه فأولئك هم المضعفون﴾** وفي الآية كما نرى علاج لحالة التفاوت في الرزق عندما تصبح خطراً على المجتمع، يدمر بيئة الإنسان ويقيد حريته، وإذا كان التفاوت في الرزق ضرورة لتفجير طاقات الإنسان. فقد رضي به القرآن في هذه الحدود فقط، ومنع أن يتحول الناس إلى طبقتين متمايزتين احداهما تملك كل القوة المالية والأخرى لا تملك إلا الفقر والعدم، وقد ذكرت سورة الحشر هذا الأمر صراحة ﴿**ما أفاء اللّٰه على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم وما آتاكم الرسول فخذوه ومانهاكم عنه فانتهوا واتقوا اللّٰه إن اللّٰه شديد العقاب﴾**( ٧ ).

وهذه الآية تعرض لحالة مفردة، لكنها تضع مبادئ عامة، فالمال لا يجوز أن يبقى دولة بين الأغنياء، كما أن لقيادة المجتمع أن تستغل مناسبات معينة لتقريب الهوة بين الفقراء والأغنياء. فتعطي الفقراء وتكل الأغنياء إلى أموالهم.

ونعود إلى آيات سورة الروم ( ٣٧-٣٩ ) ولها أمثال كثيرة في القرآن، لكنها تلخص مبادئ الإسلام في إقامة العلاقات الاقتصادية بين الناس في المجتمع الواحد:

فهي تذكر الزكاة وهو مبدأ ثابت في العلاقات المالية الإسلامية. وهو ركن أساسي في الإسلام، فعلى كل صاحب مال أو رزق أن يدفع نسبة من ماله للمجتمع لتوزعها قيادة المجتمع على فئات معلومة من فقرائه. والنسبة التي يدفعها صاحب المال تتفاوت من

٢,٥٪-١٠٪ حسب نوع ماله ومصدره وطريقة استثماره،

وفوق الزكاة هناك الصدقة التي ذكرت في القرآن في مواطن عديدة واعتبرت من علامات إيمان المؤمن وتكون للفقراء والمساكين بدءاً بالأقارب واليتامى وانتهاء بابن السبيل الغريب الذي انقطع به الطريق.

ثم تنهى عن الرباء وهو استغلال حاجة الفقير إلى الرزق، واعطائه حاجته مقابل سدادها أضعافاً مضاعفة، وكان يجب أن تقضي حاجة الفقير بالصدقة أو الزكاة، والمقابلة بين الربا والزكاة واضحة في الآية، ومعروف مايسببه الربا من تدمير لبيئة الإنسان النفسية، ومايفسده في مجال العلاقات بين الناس. وفي سورة البقرة وصف دقيق وتقريع بالغ لمن يستغل حاجة أبناء مجتمعه ليربي أمواله.

هذه معالم العلاقة بين الإنسان وأخيه الإنسان في أمور الرزق حسب تعاليم القرآن، وفي المجتمع الذي يتبع هذا المنهج يلزم أن توضع قوانين مكملة تمنع أنواع الانحراف الأخرى، فامتلاك الرزق شهوة. لذا قد تمتد إليها اليد بغير حق. وهنا يلزم ردع الاعتداء.

وقد ذكر القرآن أنواعاً من الاعتداء ومايلزمها من علاج، فالسرقة ممنوعة بل حكمها قطع اليد التي تسرق مادام صاحبها لحاجة، وما دام مجتمعه يقدم له حاجته، فإن فشل المجتمع في سد حاجة أبنائه فلا لوم على السارق ولا قطع ليده.

كما مُنعَتْ أنواع أخرى من الاعتداء على المال كالتطفيف في الكيل والميزان، وفي أكثر من موطن في القرآن أمر الناس بإيفاء الكيل

والميزان، وفي مواطن أخرى اعتبر عدم إيفاء الكيل واتباع الميزان مظهراً من مظاهر انحراف بعض الأمم وسبباً في دمارها كما حدث مع قوم شعيب، ومن ضمانات حق صاحب المال الذي يتعاون مع أفراد مجتمعه فيقرضهم ماله أن يكتب الدين وأن يكون شهود أو رهان، وأن لا يأبى شاهد أو كاتب عن القيام بواجبه تجاه الحق وتجاه المجتمع، فالناس لا يستغنون عن بعضهم في هذا المجال (البقرة: الآية ٢٨٢)، وهكذا يضمن القرآن لأفراد المجتمع الآخذين به أن لا يجوع أحدهم أو أن يعرى، كما يضمن لصاحب المال أن لا يكون عرضة لسهام الحسد والحقد من أبناء مجتمعه الفقراء، بل ربما تمنوا له مزيداً من النعمة، فلهم في ماله حق معلوم، يزكي نفسه ونفوسهم، كما جعل عقاب الاعتداء على أموال الآخرين شديداً، يفوق قيمة أي مال، كي يعيش الناس في أمان نفسي على أموالهم، وفي أمان من شر أموالهم وقسوة سلطانها، إذ حرم أيضاً استعمالها في استغلال حاجة الضعفاء ربا أو قوة منحرفة مدمرة.

## (ك) التمدن والاجتماع الإنساني:

مع أن القرآن الكريم كله دعوة إلى تمدن المجتمع البشري، إلا أن فيه سوراً تكاد تكون متخصصة في رسم صورة المجتمع المتمدن: (كالنساء والأعراف والاسراء والنور ولقمان والحجرات). ومما جاء في هذه السور وسواها سنحاول هنا رسم صورة المجتمع المتمدن وعلاقاته الداخلية كما أرادها القرآن الكريم.

١ – البداوة: رغم اعتزاز الناس بالبادية وقيمتها. إلا أن سياسة القرآن كانت تسعى إلى التقليل من سكنى البادية ما أمكن وتشجيع الناس على سكنى المدن واقامتها، ليتقارب الناس ويزداد احتكاكهم ببعضهم البعض، فيزداد تعارفهم ويتعلمون من بعضهم البعض، وهذا مالا تيسره حياة البادية ببيوتها المتباعدة، وانشغال كل أسرة بنفسها عما سواها.

وتلميحات القرآن ضد حياة البداوة كثيرة، ففي سورة الأحزاب يربط بين سكنى البادية والتهرب من الدفاع عن المدينة والدولة: ﴿ **يحسبون الأحزاب لم يذهبوا، وان يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون في الاعراب يسألون عن أنبائكم، ولو كانوا فيكم ماقاتلوا إلا قليلا** ﴾ (الأحزاب: ٢٠). والآية تقارن بين مايقدمه ساكن البادية للمجتمع ساعة القتال وهو السؤال عن أنبائه، وبين مايقدمه ساكن المدينة وهو المشاركة في المعركة بكل مايملك حتى روحه. وهذا هو شرط الانتماء إلى مجتمع ما.

وفي سورة براءة (التوبة). وهي سورة القتال من أجل إقامة مجتمع واحد متمدن للعرب، يأتي ذكر الاعراب امتدادا لذكرهم في سورة الأحزاب لكن بصورة أوضح ﴿ **الاعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ماأنزل الله على رسوله، والله عليم حكيم. ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرما ويتربص بكم الدوائر، عليهم دائرة السوء، والله سميع عليم. ومن الاعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ماينفق قربات عند الله وصلوات الرسول، ألا إنها قربة لهم، سيدخلهم الله في رحمته، إن الله غفور رحيم** ﴾،

﴿ **ومن حولكم من الاعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق، لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم** ﴾ ( ٩٧-٩٩، ١٠١ ).

وتشكل هذه الآيات حواراً كاملاً بشأن البداوة، فالبدوي ضعيف الإنتماء إلى المجتمع في أمور الانفاق والجهاد، ولكنه يستطيع أن يكون مواطناً ملتزماً بإيمان وطنه، فليست البداوة سداً مانعاً دون ذلك، كما أن النفاق ليس قصراً على البادية ففي المدينة أيضاً منافقون، ولكن اجتماع الناس في المدن والقرى يقلل فرصة عدم الانتماء ويزيد فرص الإيمان بمبادئ المجتمع لدى ساكنيها، وتشير الآية إلى السبب الجوهري في ذلك وهو وجود فرص للتعليم والاطلاع في المدينة والقرية أكثر مما في البادية.

وعدم التعلم وقلة المعرفة يؤديان إلى عدم اليقين أحياناً وعدم القدرة على فهم فكرة المجتمع وضرورتها، وهذه هي آفة البادية العربية مذ كانت، وإليها تشير آيات من سورة الفتح ﴿ **سيقول لك المخلفون من الاعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا، يقولون بألسنتهم ماليس في قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضرا أو أراد بكم نفعا بل كان الله بما تعملون خبيراً. بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً وزين ذلك في قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوما بورا** ﴾ ( ١١ ١٢ الفتح ).

وفي سورة الحجرات ( ١٤-١٥ )، حيث توضع النقاط على الحروف يقال للأعراب لستم مؤمنين لأنكم لا تمتلكون شرط الإيمان وهو الجهاد بالمال والنفس في سبيل الله، ومن ملك هذا الشرط فلا ينقص الله عمله بدويا كان أو حضرياً.

## ٢ – التمدن والاجتماع:

دعوة القرآن إلى تمدن الناس واجتماعهم واضحة قوية، وهي مقرونة غالباً بتذكير الناس بأنهم من أب واحد، وهو نوع من التحريض على التمدن والاجتماع، فالناس يتباعدون عن بعضهم البعض، ويميلون إلى العزلة، شعوراً بالغربة عن بعضهم البعض، أو خوفاً من أذى بعضهم لبعض. لذلك راعى القرآن في دعوته إلى التمدن والاجتماع أن يحرر المجتمع من أذى نفسه ويجعل اجتماعهم مصدر سعادة لهم وليس مصدر شقاء وتنغيص.

وفي سورة الحجرات وهي جديرة بأن تسمى سورة التمدن يقول تعالى: ﴿ **يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾( ١٣ ).

فهي دعوة إلى التقارب والتعارف، وختامها دعوة إلى التنافس في التقوى. فالتقوى هي مقياس المكانة عند الله، والتقوى حسب مفاهيم سورة الحجرات ليست إلا التمدن والتهذب. (الآيتان ٣–٤).

## ٣- خصائص المجتمع المتمدن:

رأينا عند مناقشة موضوع البداوة أن أهم شروط بناء المجتمع مع وجود أفراد فيه قادرين على التضحية في سبيله بالنفس والمال (الحجرات: ١٥). واعتبرت سورة البقرة الحفاظ على حدود الوطن علامة حياة وبالمقابل اعتبرت الذين يستسلمون لأعدائهم، فيهربون من أوطانهم حذر الموت أمواتاً. وهم كما نرى في آيات سورة البقرة ٢٣٤-٢٥١ ليسوا أمواتاً بالمعنى الحقيقي. لكن أموات من حيث هم بلا عزة ولا كرامة. وتقول الآيات المذكورة أن باستطاعة جماعة من الناس استرداد كرامتها المهدورة بالجهاد والانفاق في سبيل الله، فتدخل بذلك دائرة الاحياء المعدودين بعزتهم وكرامتهم.

وهذه الحالة تختلف عن الحالة الفردية التي ناقشناها في باب حرية الرأي والعقيدة، فتلك حالات فردية.. والحالة هنا حالة مجتمع بكامله أذله اعداؤه وأخرجوه من أرضه.

ومما يلزم لقيام المجتمع المتمدن سيادة العدل فيه ﴿ **يأأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ان يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما، فلا تتبعوا الهوى ان تعدلوا وان تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا** ﴾ (النساء: ١٣٥) والقرآن مليء بمثل هذه الآية، وفي كل مرة كان ينبه إلى مزلق من المزالق التي قد تصرف الناس عن العدل وتزين لهم حكم الهوى.

واحترام القيادة وطاعتها شرط أساسي لقيام المجتمع المتمدن، ففي القرآن أربع آيات على الأقل تبدأ بقوله تعالى ﴿ **واطيعوا الله وأطيعوا الرسول** ﴾ ( المائدة ٩٢ ، التغابن: ١٢ ) أو ﴿ **وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون** ﴾ ( آل عمران: ١٣٢ ) وإذا أخذنا واحدة من هذه الآيات وقرأناها حتى النهاية لوجدنا أنها تعني بطاعة الرسول طاعة القيادة ليبقى المجتمع متماسكاً قوياً فنقرأ مثلاً في سورة الأنفال ( ٤٦ ) ﴿ **وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين** ﴾ .

بل تتقدم سورة الحجرات خطوة أخرى أمام الطاعة لتطلب احترام القيادة ﴿ **ياأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون. إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجرة عظيم. إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون. ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم والله غفور رحيم** ﴾( ٢-٥ ) .

وسورة الحجرات تدعوا إلى احترام متبادل بين جميع أفراد المجتمع، وتنهى عن أن يسخر أحد من أحد أو يسيء إليه بقول ( الآية: ١١ ) . وتنهى عن الغيبة والتجسس وسوء الظن في التعامل بين أبناء المجتمع الواحد ( ١٢ ) . ومادمنا مع سورة الحجرات فلنذكر واحدة من مآثرها وهي تصنع المجتمع إذ تدعو إلى التثبت من القول وعدم التصديق بدون دليل كائنا من كان المتحدث، مادام القول

سيؤدي إلى قرارات قد تؤذي أناساً آخرين ﴿ **ياأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على مافعلتم نادمين** ﴾ ( ٦ ) ومما يحفظ الود بين أفراد المجتمع التواضع في التصرفات والبعد عن الجلافة والاعتدال في القول والعمل، وفي سورة لقمان مجموعة من النصائح نقتبس منها ﴿ **ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحا، إن الله لا يحب كل مختال فخور. واقصد في مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير** ﴾ ( ١٨-١٩ لقمان ).

وصلة الأرحام مقدمة لمجتمع متواصل بالحب لذلك كانت الدعوة إليها شديدة ومتكررة في القرآن الكريم. ﴿ **وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله، إن الله بكل شئ عليم** ﴾( الأنفال: ٧٥ ).

ومن علامات فساد الأمم وانهيارها قطع الأرحام ﴿ **والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار** ﴾ ( الرعد: ٢٥ ). وما أمر الله به أن يوصل هو الرحم وصلة القرابة.

ومن صلة الرحم والقربى أن للقريب أولوية الصدقة بل هي حق للفقير على قريبه الغني: ﴿ **وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا** ﴾ ( الاسراء: ٢٦ ). ويذكّر القرآن بخصوصية كل فرد ويحفظ له حدوداً لا يتعداها أحد مهما كان قريباً، ففي سورة النور ينهى الأبناء ومن هم في منزلتهم من الدخول على الأبوين أو أحدهما وهو في ساعة خلوته واستراحته ﴿ **ياأيها الذين آمنوا**

**ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم بعضكم على بعض كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم. وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم، كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم﴾** (النور: ٥٨–٥٩).

هذا بين أفراد الأسرة الواحده التي تنتمي لرجل واحد، فكيف يكون الأمر بين أفراد الأسر المختلفة؟ لابد من الاستئذان دائماً وفي كل وقت، وان للبيوت حرمة لا يجوز امتهانها، حتى لو لم يكن أهلها فيها. ﴿ **ياأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون. فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم، وان قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم﴾** (النور: ٢٧–٢٨).

وإذا كان القرآن قد حفظ للإنسان خلوته في بيته، فقد حفظ سمعته وعرضه خارج بيته، والحفظ عليه داخل بيته سهل فهو هناك مع زوجه، ولكنه خارج بيته مع المجتمع كله، حيث يلتقي رجال ونساء ولا غنى عن هذا الاختلاط بين الجنسين في مجتمع متمدن. لذلك وضع الله قوانين مشددة لحفظ أغراض الناس وسمعتهم. ووضع حدوداً حازمة للذين يحاولون العبث بحرية المجتمع أو الاساءة إلى سمعة أفراد منه.

فالذين تسول لهم أنفسهم تشويه سمعة امرأة ما فعقابهم الجلد

والحرمان من بعض الحقوق المدنية والسياسية. ﴿**والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون**﴾(النور: ٤).

وموضوع جلد القاذف وعدد شهود الزنا موضوع يستحق الوقوف عنده، فإذا شهد ثلاثة أشخاص على رجل وامرأة بأنهما مارسا الزنا وأنكر هذان الفعل، فحكم القرآن أن يجلد الشهود الثلاثة لأنهم خاضوا في عرض انسانين وشوهوا سمعتهما وكان سترهما أولى حتى لو كانت الشهادة صحيحة.

وإذا اتفق أن التقى أربعة أشخاص في مكان عام وشاهدوا فعلة زنا فعليهم أن يتوثقوا مما يشاهدون وإلا اعتبرت شهادتهم قذفاً، وجلدوا. إن لهذا معنى واحدا هو أن القرآن يريد للمجتمع أكبر قدر من الحرية الاجتماعية، لكنها حرية ملتزمة ومحتشمة، وقد ضبطهما بضابطين الأول جلد من يشيع أخبار الفاحشة حتى لو كان صادقاً مالم يكن معه ثلاثة شهود غيره ليكونوا أربعة، والثاني منع الفاحشة الجريئة، فإذا بلغت الجرأة برجل وامرأة أن يمارسا الفاحشة بحيث يراهما أربعة رجال وهم في حالة الفعل المنكر فانهما يستحقان العقاب الشديد، فإن كانا عازبين جلد كل منهما مائة جلدة، وان كانا متزوجين رجما حتى الموت، والذي يخطر ببالي هنا أن الغرض من الحدين حد القذف وحد الزنا هو المحافظة على سمعة المجتمع ونظافة مظهره وليس منع الزنا. ،فهذه الأحكام تمنع ضعفاء النفوس من ممارسة فاحشتهم في الأماكن العامة ولكنها لا تمنعهم من اللقاء الآثم في ستر لو أرادوا، كما أنها تخرس الألسن التي تشوه سمعة المجتمع.

والفائدة الوحيدة في الحالتين هي حرية أبناء المجتمع في اللقاء آمنين على سمعتهم وعلى مشاعرهم أن يشوهها ضعيف أو سيء خُلُق. وكما حافظ القرآن على سمعة الأفراد العاديين فقد حافظ على سمعة قادة المجتمع ورجال الادارة فيه، فهم أيضاً عرضة للشائعات والاتهام بالظلم لذلك جاء القرآن فوضع حداً لهذه الظاهرة بقوله ﴿ **لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم وكان الله سميعاً عليماً** ﴾( النساء: ١٤٨ ).

## ٤- محاربة الفساد:

محاربة الفساد هي الضمانة لبقاء المجتمع قائماً واطمئنان أفراده إلى الحياة من حولهم، وقد حرص القرآن على ذكر أسباب الفساد ونتائجها منذراً المجتمع بالتدهور والانحطاط بل الهلاك أحياناً إذا انتشر فيه الفساد، ومن المفاسد التي حرمها القرآن الاقتتال الداخلي لغير هدف، وأمر بالاصلاح بين طوائف المجتمع المؤمن عندما تتقاتل ( الحجرات: ٩ ). كما نهى عن أكل حقوق الناس بالباطل سواء كان باستعمال القوة كالرشوة وأكل مال اليتيم أو بالاحتيال كالسرقة وتطفيف الكيل والميزان، ونهى عن الربا، كما نهى عن الزنا وشهادة الزور، ونشر الشائعات بين الناس.،وقبل ذلك نهى عن القتل بغير حق. وعن كثير من خصال الفردية والأنانية والجاهلية. وبذا ضمن بأحكامه وقوانينه وتلميحاته بناء مجتمع متمدن وضمن تطور هذا المجتمع وتقدمه إلى الامام باستمرار ضمن اطار ثابت من أحكام القرآن وحول محور ثابت هو الإيمان بالله.

## ثامناً : وختاماً :

فإن من يدرس علاقة الإنسان بالبيئة في القرآن الكريم يخرج بما يلي :

١- إن كل ما في البيئة مخلوق من أجل الإنسان مسخر له، لجعل حياته سهلة ورزقه ميسراً.

٢- البيئة الأرضية جزء من الكون كله، وهي بيئة متوازنة، خلق كل شيء فيها بحساب دقيق، وعلى الإنسان أن يحافظ على توازنها باستمرار ولا يتسبب بخللها أو تلويثها كي لا تضطرب أمورها فيدفع هو الثمن. أو تقل منافع عطائها بسبب التلوث.

٣- الأرض كافية للناس كونها مصدر رزق ومكان سكن إذا أحسنوا إدارة أمورها.

٤- ليس من الحكمة أن يهدر الإنسان ماخلق الله له من طاقات ومصادر طبيعية، أو يستنزفها، فالمصادر الطبيعية يمكن أن تنضب إذا لم يحافظ عليها الإنسان، لذا عليه أن يحسن استغلالها، فالاسراف والتبذير في استعمالات الطاقات والموارد الطبيعية حرام في الإسلام.

٥- ان هناك ترابطاً وتفاعلاً بين الإنسان والحيوان والنبات، وان بعض النباتات والحيوانات قادر على الايحاء للإنسان بأفكار نافعة له في مجال تطوره وتقدمه، كما يستطيع هو أن يطور في عالمي النبات والحيوان.

٦- يجب المحافظة على كل نوع نباتي أو حيواني في البيئة. وحمايته من الانقراض، حتى لو لم تكن الفائدة من وجوده معروفة الآن. فما خلق الله من شيء عبثاً.

٧- الإنسان جزء من بيئة الإنسان، ويستطيع أن يكون سبباً في سعادة محيطه الإنساني كما يستطيع أن يكون سبباً في شقاء اخوته البشر، وفي الحالة الأولى يكون له نعيم الدارين وفي الثانية عذاب الدنيا والآخرة.

# المصادر والمراجع

(أ) القرآن الكريم: ذكر رقم كل آية وسورتها في موقعها من البحث.

(ب) كتب تفسير القرآن الكريم:

١- ابن كثير: اسماعيل، ت ٧٧٤، تفسير القرآن العظيم دار المعرفة للطباعة والنشر- بيروت ١٩٦٩م.

٢- السيوطي والمحلي : جلال الدين السيوطي وجلال الدين المحلي، تفسير الامامين الجلالين- مطبوعات دار مروان- دار العربية- بيروت ١٩٧٤م.

٣- الفيروزآبادي: مجد الدين محمد بن يعقوب ٨١٧هـ، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تحقيق محمد علي النجار، نشر المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية- القاهرة ١٣٨٣هـ.

(ج) السنة النبوية: وأخذت من المراجع التالية:

١- البخاري: أبوعبدالله محمد بن اسماعيل، الجامع الصحيح المسند المختصر من حديث رسول الله ﷺ وسننه وآياته، بخاري ت: ٢٣٢هـ، نشر كتاب الشعب، مطابع الشعب- القاهرة ١٣٧٨هـ.

٢- ابن الأثير: مجد الدين بن محمد الجزري، ت

٦٠٦هـ، جامع الأصول في أحاديث الرسول، تحقيق عبدالقادر الأرناؤوط، مكتبة الحلواني دمشق، ١٣٨٩هـ.

٣- ابن ماجة: محمد بن يزيد، ت: ٢٧٥هـ، سنن المصطفى، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، نشر مطبعة البابي الحلبي - القاهرة ١٩٥٢.

٤- مسلم: مسلم بن الحجاج، ت: ٢٦١هـ، صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، نشر مطبعة البابي الحلبي- القاهرة ١٩٥٥م.

٥- النسائي: أحمد بن شعيب، سنن النسائي بشرح السيوطي، المكتبة التجارية- القاهرة، ١٩٣٠م.

# الفهرس

# صدر من هذه السلسلة

| | | |
|---|---|---|
| ١ - | تأملات في سورة الفاتحة | الدكتور حسن باجودة |
| ٢ - | الجهاد في الاسلام مراتبه ومطالبه | الأستاذ أحمد محمد جمال |
| ٣ - | الرسول في كتابات المستشرقين | الأستاذ نذير حمدان |
| ٤ - | الاسلام الفاتح | الدكتور حسين مؤنس |
| ٥ - | وسائل مقاومة الغزو الفكري | الدكتور حسان محمد مرزوق |
| ٦ - | السيرة النبوية في القرآن | الدكتور عبد الصبور مرزوق |
| ٧ - | التخطيط للدعوة الاسلامية | الدكتور محمد علي جريشة |
| ٨ - | صناعة الكتابة وتطورها في العصور الاسلامية | الدكتور أحمد السيد دراج |
| ٩ - | التوعية الشاملة في الحج | الأستاذ عبد الله بوقس |
| ١٠- | الفقه الاسلامي آفاقه وتطوره | الدكتور عباس حسن محمد |
| ١١- | لمحات نفسية في القرآن الكريم | د. عبد الحميد محمد الهاشمي |
| ١٢- | السنة في مواجهة الأباطيل | الأستاذ محمد طاهر حكيم |
| ١٣- | مولود على الفطرة | الأستاذ حسين أحمد حسون |
| ١٤- | دور المسجد في الاسلام | الأستاذ محمد علي مختار |
| ١٥- | تاريخ القرآن الكريم | الدكتور محمد سالم محيسن |
| ١٦- | البيئة الادارية في الجاهلية وصدر الاسلام | الأستاذ محمد محمود فرغلي |
| ١٧- | حقوق المرأة في الإسلام | د. محمد الصادق عفيفي |
| ١٨- | القرآن لكريم كتاب أحكمت آياته [١] | الأستاذ أحمد محمد جمال |
| ١٩- | القراءات أحكامها ومصادرها | د.شعبان محمد اسماعيل |
| ٢٠- | المعاملات في الشريعة الاسلامية | الدكتور عبد الستار السعيد |
| ٢١- | الزكاة فلسفتها وأحكامها | الدكتور علي محمد العماري |
| ٢٢- | حقيقة الانسان بين القرآن وتصور العلوم | الدكتور أبو اليزيد العجمي |
| ٢٣- | الأقليات المسلمة في آسيا وأستراليا | الأستاذ سيد عبد المجيد بكر |
| ٢٤- | الاستشراق والمستشرقون وجهة نظر | الدكتور عدنان محمد وزان |
| ٢٥- | الإسلام والحركات الهدامة | معالي عبد الحميد حمودة |
| ٢٦- | تربية النشء في ظل الاسلام | الدكتور محمد محمود عمارة |
| ٢٧- | مفهوم ومنهج الاقتصاد الاسلامي | د. محمد شوقي الفنجري |
| ٢٨- | وحي الله | د. حسن ضياء الدين عتر |
| ٢٩- | حقوق الانسان وواجباته في القرآن | حسن أحمد عبد الرحمن عابدين |
| ٣٠- | المنهج الإسلامي في تعليم العلوم الطبيعية | الأستاذ محمد عمر القصار |
| ٣١- | القرآن كتاب أحكمت آياته [٢] | الأستاذ أحمد محمد جمال |
| ٣٢- | الدعوة في الاسلام عقيدة ومنهج | الدكتور السيد رزق الطويل |
| ٣٣- | الاعلام في المجتمع الاسلامي | الأستاذ حامد عبد الواحد |

| | | |
|---|---|---|
| ٣٤- | الالتزام الديني منهج وسط | **عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني** |
| ٣٥- | التربية النفسية في المنهج الاسلامي | **الدكتور حسن الشرقاوي** |
| ٣٦- | الاسلام والعلاقات الدولية | **د. محمد الصادق عفيفي** |
| ٣٧- | العسكرية الاسلامية ونهضتنا الحضارية | **اللواء الركن محمد جمال الدين محفوظ** |
| ٣٨- | معاني الأخوة في الإسلام ومقاصدها | **الدكتور محمود محمد بابللي** |
| ٣٩- | النهج الحديث في مختصر علوم الحديث | **الدكتور علي محمد نصر** |
| ٤٠- | من التراث الاقتصادي للمسلمين | **د. محمد رفعت العوضي** |
| ٤١- | المفاهيم الاقتصادية في الاسلام | **د. عبد العليم عبد الرحمن خضر** |
| ٤٢- | الأقليات المسلمة في أفريقيا | **الأستاذ سيد عبد المجيد بكر** |
| ٤٣- | الأقليات المسلمة في أوروبا | **الأستاذ سيد عبد المجيد بكر** |
| ٤٤- | الأقليات المسلمة في الأمريكتين | **الأستاذ سيد عبد المجيد بكر** |
| ٤٥- | الطريق إلى النصر | **الأستاذ محمد عبد الله فودة** |
| ٤٦- | الاسلام دعوة حق | **الدكتور السيد رزق الطويل** |
| ٤٧- | الاسلام والنظر في آيات الله الكونية | **د. محمد عبد الله الشرقاوي** |
| ٤٨- | دحض مفتريات | **د. البدراوي عبد الوهاب زهران** |
| ٤٩- | المجاهدون في فطان | **الأستاذ محمد ضياء شهاب** |
| ٥٠- | معجزة خلق الانسان | **د. نبيه عبد الرحمن عثمان** |
| ٥١- | مفهوم القيادة في إطار العقيدة الاسلامية | **د. سيد عبد الحميد مرسي** |
| ٥٢- | ما يختلف فيه الاسلام عن الفكر الغربي والماركسي | **الأستاذ أنور الجندي** |
| ٥٣- | الشورى سلوك والتزام | **لدكتور محمود محمد بابلي** |
| ٥٤- | الصبر في ضوء الكتاب والسنة | **أسماء عمر فدعق** |
| ٥٥- | مدخل إلى تحصين الأمة | **الدكتور أحمد محمد الخراط** |
| ٥٦- | القرآن كتاب أحكمت آياته [٣] | **الأستاذ أحمد محمد جمال** |
| ٥٧- | كيف تكون خطيبًا | **الشيخ عبد الرحمن خلف** |
| ٥٨- | الزواج بغير المسلمين | **الشيخ حسن خالد** |
| ٥٩- | نظرات في قصص القرآن | **محمد قطب عبد العال** |
| ٦٠- | اللسان العربي والاسلامي معاً في مواجهة التحديات | **الدكتور السيد رزق الطويل** |
| ٦١- | بين علم آدم والعلم الحديث | **الأستاذ محمد شهاب الدين الندوي** |
| ٦٢- | المجتمع الاسلامي وحقوق الانسان | **د. محمد الصادق عفيفي** |
| ٦٣- | من التراث الاقتصادي للمسلمين [٢] | **الدكتور رفعت العوضي** |
| ٦٤- | تصحيح مفاهيم حول التوكل والجهاد | **الأستاذ عبد الرحمن حسن حبنكة** |
| ٦٥- | لماذا وكيف أسلمت [١] | **الشهيد أحمد سامي عبد الله** |
| ٦٦- | أصلح الأديان عقيدة وشريعة | **الأستاذ عبد الغفور عطار** |
| ٦٧- | العدل والتسامح الاسلامي | **الأستاذ أحمد المخزنجي** |
| ٦٨- | القرآن كتاب أحكمت آياته [٤] | **الأستاذ أحمد محمد جمال** |

| | |
|---|---|
| ١٣٩ – سقوط الأيديولوجيات | الأستاذ أنور الجندي |
| ١٤٠ – الطفل في الإسلام | الأستاذ محمود الشرقاوي |
| ١٤١ – التوحيد فطرة الله التي فطر الناس عليها | فتحي بن عبد الفضيل بن علي |
| ١٤٢ – لمحات من الطب الإسلامي | د. حياة محمد علي جفاجي |
| ١٤٣ – الإسلام والمسلمون في ألبانيا | د. السيد محمد يونس |
| ١٤٤ – أحمد محمد جمال ( رحمه الله) | مجموعة من الأساتذة الكُتّاب |
| ١٤٥ – الهجوم على الإسلام | الأستاذ أحمد أبو زيد |
| ١٤٦ – الإسلام والنظام العالمي الجديد | د. حامد أحمد الرفاعي |
| ١٤٧ – من جماليات التصوير في القرآن الكريم | محمد قطب عبد العال |
| ١٤٨ – الواقع الاستهلاكي للعالم الإسلامي | زيد بن محمد الرماني |
| ١٤٩ – الماسونية والمرأة | جمعان بن عايض الزهراني |
| ١٥٠ – جوانب من عظمة الإسلام | اسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي |
| ١٥١ – الأسرة المسلمة | د. حسن محمد باجودة |
| ١٥٢ – حرب القوقاز الأولى | د. احمد موسى الشيشاني |
| ١٥٣ – المفاهيم الاستهلاكية في ضوء القرآن والسنة النبوية – الجزء الثاني | زيد بن محمد الرماني |
| ١٥٤ – المسلمون في جمهورية الشاشان وجهادهم في مقاومة الغزو الروسي | الدكتور السيد محمد يونس |
| ١٥٥ – القدس في ضمير العالم الإسلامي | اعداد مجموعة من الباحثين |
| ١٥٦ – الطريق إلى الوحدة الإسلامية | اعداد مجموعة من الباحثين |
| ١٥٧ – المركز القانوني الدولي لمدينة القدس | د. جعفر عبد السلام |
| ١٥٨ – الحوار النافع بين أصحاب الشرائع | عبد الرحمن |

طبع بمطابع رابطة العالم الاسلامي في مكة المكرمة